روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي





مجموعات قصصية

الكابوس

The Nightmare

عبد الرحمن

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا







الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020223937718
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy



الكابوس

وقصص أخرى

د. نجيب الكيلانى

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠٣٣٢/٢٠١٢

الترقيم الدولي:

978-977-255-367-9



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٣٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المجموعة من القصص القصيرة كُتبت في أوقات متباعدة، في الفترة ما بين ١٩٦٥- ١٩٧١م ولم يتيسر جمعها إلا في هذا العام -في وقته-.

المؤلف

الكابوس

(١)

أغمض عينيه ، ثم فتحها مرة أخرى ، وجال ببصره هنا وهناك ، إنه لا يكاد يصدق ما يرى ، ما الذى أتى به إلى هذا المكان ؛ إنه لا يكاد يصدق عينيه ، هل من المعقول ألا يلتفت إليه أحد ، شىء غريب غاية الغرابة ، إنه ملء السمع والبصر فى كل أنحاء الدنيا ، صورته معروفة ، فليس هناك صحيفة فى العالم إلا ونشرتها ، ولا يوجد تليفزيون إلا وأبرزه على شاشته حتى الأطفال الصغار لا يخطئونه ، أبعد هذا كله لا يجد واحداً من هذا الحشد الحاشد يحييه أو حتى ينظر إليه مجرد نظرة عابرة؟ لقد كان من المتوقع أن يفسح الناس له الطريق ، ويحملوه على الأعناق ، ويطلقون الهتافات الداوية التى تشق عنان السماء ، ويرددوا اسمه فى اعتزاز وافتخار ، إنه قاهر الأعداء ، ومحطم الملوك ، وباعث الثورة والتمرد فى كثير من الأقطار ، إن مجرد ذكر اسمه يبعث الحماس والإعجاب فى بعض القلوب ، ويثير الرعب والرهبة فى قلوب أخرى ، وقد يشعل

الحقد والنفور والغضب لدى فئة ثالثة، ومع ذلك فإن أقلام أنصاره تطلق عليه «الزعيم الخالد». . «الزعيم الأوحد» «العملاق الأسمر» «قاهر الطغاة» وصفات لا تعد ولا تحصى، إن صحف الوطن وإذاعاته وتلفزيوناته تفيض بمدحه والثناء عليه، وتضعه فى مصاف الأنبياء إن لم يكن أكثر . .

لكنه الآن يمضى دون حراس أو حجاب، ولا تتردد من حوله الهتافات، أو تلوح له الأيدى، ولا يكاد يسمع صدى لأبواق السيارات الفارهة، والدراجات البخارية التى تنطلق فى سرعة مذهلة، وهو يشعر بظمأ شديد يكاد يقتله، يا لهول ما يشعر به من جفاف فى الحلق والفم، لقد استبد به الكبرياء لدرجة أنه يأنف أن يسأل أحداً عن شربة ماء، لكنه لا يكاد يتحمل، فكان لابد مما ليس منه بد، مال على أحد الواقفين قائلاً:

- «يكاد يقتلنى الظمأ . .».

- «كلنا مثلك . .».

- «وماذا نفعل؟ . .».

- «انظر . . أترى تلك المنصة العالية . .».

أرسل ببصره إلى بعيد، استطاع أن يميز بصعوبة بالغة مكان المنصة حيث يجلس بضعة نفر فى أردية خضراء.

- «أجل . . إننى أراها . . » .

- «هناك النيـابيع . . ولابد أن تصل إليـهـا لتـأخـذ الإذن بالشرب . . » .

ثار الغضب فى داخله، وتمتم :

- «حسبتك ستذهب على التو لإحضار الماء لى» .

قهقه الرجل الغريب قائلاً :

- «هنا لا يسقى أحداً أحداً . . » .

- «ألا تعرف من أنا؟؟» .

- «لا أريد أن أعرف . . » .

ثم دفعه فى صدره قائلاً :

- «لا تعوقنى عن مسيرتى «فأمامى أهوال وأهوال» جميع الناس هنا أيها الإنسان المخدوع بدايات جديدة . . » .

مد الزعيم يده ليقبض على عنقه، ويزهق روحه، إنه يتمتع بقوة خارقة، وإرادة من حديد، وكانت كلمة كافية للقضاء على حياة العشرات، وحاول أن يضغط على عنق الرجل، لكن قواه خانته، وأخذ الرجل يبتسم فى سخرية، ثم قال :

- «متى أتيت إلى هنا؟» .

- «الآن . . ».

وعاد الرجل إلى ابتسامته الساخرة وقال :

- «إننى هنا منذ عامين . . ».

- «واقفًا هكذا . . ».

- «نعم . . يعتصرنى الخوف والظمأ . . ».

- «هنا . . لا نموت . . إما العذاب وإما النعيم . . ».

صدمته الكلمات الصاعقة ، تلتف حول باحثًا على أى طرف من أطراف الحقيقة ، تفحص فى الوجوه لعله يجد أحداً يعرفه ، إن أنفاسه تتلاحق ، ويشعر بما يشبه الاختناق ، ما هذا العار؟؟ ومن الذى أتى به إلى هنا؟ وفى أى موقف هو؟؟ أيمكن أن يكون ما يراه الآن حقيقة واقعة ، أم أن ذلك مجرد رؤيا مزهجة أو كابوس رهيب؟؟

- «استحلفك بالله . . من أنتم؟؟ وأين نحن الآن؟».

وفى هذا الوقت بالذات رأى الزعيم رجلاً يعرفه تمام المعرفة ، طائرًا فوق رأسه بأجنحة بيضاء ، والابتسامة تشرق على وجهه ، والنور يفيض حوله من كل جانب ، كان منطلقًا فوق الرؤوس فى سهولة ويسر وسعادة . .

فصاح الزعيم دون وعى :

- «إنه الخائن . . لقد حكمت عليه بالإعدام منذ فترة وجيزة» .

قهقه الرجل الغريب قائلاً :

- «خائن؟؟» .

- «أجل . . لقد سجل اعترافاته بخط يده» .

وانهمرت دموع الغريب وقال :

- «ليتك تعرف . . هنا لاتزوّر الوقائع ، ولا تزيّف الاعترافات . . سترى بنفسك . . إن الطائرين فوق الرؤوس هم صفوة الخلق ، وأحباب الله . . » .

- «نحن؟؟» .

- «نحن الأشقياء الأدنياء . . هم يصلون إلى المنصة والينابيع فى لحظات . . ونحن نزحف فى تعاسة وشقاء لسنين طويلة . . يا ويلنا!!» .

قال الزعيم :

- «تريد أن تقول إننا فى يوم الحساب» .

- «بل بدايات . . مجرد بدايات للحساب . . » .

- «إذن فأنا ميت . . » .

- «أنت فى طور جديد من الخلق . . والموت انتقال . . وليس فناءً أبديًا» .

- «قيل هذا ذات يوم . . وكنت فى شك منه . . بل ربما كنت لا أعيره اهتمامًا . ولا أفكر فيه التفكير الذى يستحقه . . » .

- «لأنك كنت سكرانًا . . » .

- «ما تناولت الخمر قط . . » .

- «ويحك أيها الصاحب الضال . . أنت مثلى . . السلطة أقوى تأثيرًا من الخمر . . إنها -إذا ضلت- وزر الأوزار ، والكأس التى تذهب بالعقول والقلوب معًا . . أتعرف من أنا؟؟ أنا مجرد سجّان صغير فى واحد من بلدان العالم الشرقى . .

- «وأنا قائد الثورة فى جمهورية «س» .

ابتسم السجّان الصغير ، وقال :

- «عرفتك . . لشد ما تغيرت سحنتك . . كان اسمك بالأمس يهز القلوب . . وصوتك المجلجل يشد الأسماع . .

لكنك اليوم أسود الوجه ، متحشرج الكلمات ، متقرح العيون . . منظرك منفر ، ويبعث على القرف . . » .

همّ الزعيم برفع يده ، لكن السجان بادره قائلاً :

- «أنت اليوم بلا حول ولا قوة . . » .

- «أكاد أموت من الظمأ . . » .

- «لا حيلة أيها الزعيم . . انظر حولك . . لو سألت هؤلاء الملايين عن أسمائهم، لوجدت فيهم الزعماء والوزراء وقادة العسكر والفلاسفة والعلماء والشعراء والتجار . . إن معظم هذا الحشد من «علية القوم» فى الزمن الغابر . . » .

جال الزعيم ببصره هنا وهناك، ملايين الرؤوس والعيون والأيدى الملوحة، وأصوات متداخلة صاخبة تستغيث، والحر شديد، والغبار يكاد يزهق الأرواح، والألسنة تتدلى، منها ما هو بضعة سنتيمترات، ومنها ما يبلغ نصف المتر، الذلة والانكسار ترتسم على العيون المؤرقة الحزينة، وطيور سوداء تنقر الرؤوس، وتقتلع الجلد والشعر، وبرك سوداء تطمر الأقدام الحافية، وهدير صاخب الماء . . الماء ووجد الزعيم نفسه يصرخ معهم «الماء . . الماء» .

ضحك السجّان الصغير وقال :

- «ظللت أصرخ مثلك هكذا لمدة عام . . » .

- «ثم ماذا؟ !» .

- «ثم صمت كما ترى . . » .

- «وما الحل . . » .

- لا حل سوى أن يتداركنا الله برحمته . . أو نبلغ المنصة . . » .

- «لقد تداركنى الله برحمته فى مواقع كثيرة . . حاول بعضهم قتلى ونجوت . . وتآمرت ضدى الدول فانتصرت . . ودبر لى الإقطاعيون والرأسماليون وأدعياء الدين فقطعت رقابهم . . وما أظنك ترى أن الله سيتركنى لأتعذب ظمأ . . » .

قال السجان :

- «هل سجدت لله سجدة شكر؟ . . » .

ولـمّا لم يجب استطرد السجان :

- «ربما كنت تكذب فيما تقول . . » .

احتدم غضب الزعيم وصرخ :

- «إنك تسىء الأدب . . لقد كان لدى عشرات الألوف من أمثالك يسيرون فى ركبى لتأديب المارقين . . » .

- «لا تغضب أيها الصاحب . . فما أكثر مَنْ ماتوا ظلمًا بسبب حقدك وجبروتك . . لا شك أن فيهم من مات ظامئًا أو جائعًا أو محرومًا من قُبلة طفله الرضيع . . فكر جيدًا ألم يحدث شىء من هذا القبيل ! !» .

زمجر الزعيم :

- «هل أنت ممن يوجهون الأسئلة فى هذا اليوم المشؤوم . . » .

- «لا بد أن تسأل نفسك قبل أن يسألوك . . فلا مجال للكذب هنا . . سوف تشهد عليك يداك ورجلاك وعيناك وأذناك . . وسيكون كل ما فى قلبك مسطوراً منشوراً بوضوح أمام القضاء . . وسيأتى أصحاب الحقوق . . وسيشهد عليك أنصارك وأحبابك . . ألم أقل لك إننا هنا خلق جديد . . إن العذاب الحالى ما هو إلا وسيلة لإزالة الغشاوة عن العيون، وإذابة كل عناصر الكذب والرياء لكى تمترج بالماء الأسود . . ماء المستنقع الذى نخوض فيه . . » .

أمسك الزعيم برأسه، لقد شعر كأن مطارق شيطانية تدق عليها، والزحام يشتد، والعرق يسيل، والأصوات تعلو وتعلو، ونسمات قليلة منعشة تأتى من فوق كلما مر إنسان مجنح ينعم بالإشراق والابتسامات والسعادة، لكنها لحظات شحيحة . .

وأخذ الزعيم يفكر . . إنه يبحث عن مخرج . . أين مجلس الأمن القومى؟ أين هيئة المكتب الاستشارى الأعلى؟؟ أين خبراء السياسة والحرب والاقتصاد والثقافة ! ! أين هيئة كبار العلماء؟؟ أين الأصدقاء الخُلَّص الذين باركوا نهجه، وطنطنوا لحكمته، وآمنوا بآرائه، وهلّلوا لكل الخطوات والتصرفات التى أقدم عليها . . لا أحد منهم اليوم معه . . لا شك أنهم الآن ورثوا مجده وعرشه، لكَم يتمنى الآن أن يرى ما هم فيه .

أخذته غفوة وهو واقف فى هذا الزحام القاتل . . آه . . إنه يرى

كل شىء الآن بوضوح . . تلك هى زوجه وأولاده . . إنهم جميعًا يبكون وينتحبون . . الجميع يبدون له وكأنهم وراء لوح زجاجى شفاف . . زوجه المسكينة تقول : «كنت أريده أن يعيش ولو كأفقر خلق الله . . لعنة الله على المناصب والسياسة والصراع . . هذا الثالوث قتل زوجى . . ذهب كل شىء .

قال ولده الصغير :

- «كان أبى من أعظم الرجال . . ومن أغلى الرجال . . ولن يجود بمثله الزمان . . وهو لا شك الآن ينعم بالجنة . . » .

وصرخ الزعيم فى حسرة :

- «لا . . لا . . أيها الابن المسكين المخدوع . . إن أباك يبحث عن جرعة ماء فلا يجدها . . لا تصدق كل ما يقوله المذياع . . لا . . لا . . لا . . وَهْمٌ . . كذب . . ضلال . . » .

وكزه السجّان الصغير وقال :

- «بماذا تهرف ؟؟» .

- «إنهم أبنائى . . » .

هز السجّان رأسه قائلاً :

- «لقد مررت التجربة نفسها . . دعك منهم . . نحن نبحث عن جرعة ماء . . » .

●●●

(٢)

ونظر الزعيم إلى مكتبه الأنيق فى قصر الرئاسة، ها هو الرئيس الجديد. . «يا إلهى. . إنه هو بعينه، تابعى الأمين، كان لا يستطيع بالأمس أن يرفع عينيه فى عينى. . إنه الآن يشمخ بأنفه، وسيجاره الضخم فى زاوية فمه، وأمامه كوب من عصير الليمون الطازج. . إننى على استعداد لأن أدفع نصف عمرى للحصول على هذا الكوب. . ماذا أرى؟؟ إنه ينظر إلى صورتى باحتقار شديد، ويشير فى عنجهية إلى واحد من طاقم السكرتارية، هأنذا أرى صورتى تنزل. . وتوضع مكانها صورته. . هناك قلمى وأوراقى، وسجائرى. . كم أتمنى أن أشعل واحدة. . رحمتك يا رب. . إن الرئيس الجديد يرمى بأشيائى فى سلة القمامة. . الوغد يبصق عليها. . ويدخل الرجل القمىء الذى أعرفه جيداً. . مدير المخابرات. . ها هو ينحنى أمامه فى احترام بالغ، وعنياه تبعثان المكر والدهاء. . سبحان مقلب القلوب. . أصبح الولاء لغيرى. . لأستمع. . الرئيس الجديد يتكلم: «اسمع يا عنتر. انتهى عهد الظلم والاستبداد. . البلد فى حاجة إلى فلسفة جديدة، وحكم جديد، المرحوم ترك أجزاء كثيرة من بلادنا محتلة، وكما ترك البلاد وهى مثقلة بالديون، وأفسد العلاقة بين طبقات الشعب الواحد، وبين الفرد والفرد، لا أريد أن أحكم أمة من العبيد. . الحرية لكل

الناس . . الحرية المعقولة . . ومن يتمرد يلق جزاءه . . مفهوم؟؟ كما أنى لن أسير فى الخط العدائى الذى رسمه الرئيس السابق . . سوف نتصالح مع الملوك والرؤساء ، فليس من الحكمة أن نخاصم الجميع ، ونشغل الحروب ، ونملأ الدنيا ضجيجًا بالخطب الجوفاء ، وشعبنا لا يجد رغيف الخبز . . يجب أن أكون واضحًا منذ البداية . . الناس تؤمن بالحرية والعدالة والنظافة وسنعزف على الوتر الذى يريحهم ويسعدهم . .

قال عنتر قائد المخابرات :

- «معنى هذا أن تخرج الثعابين من جحورها ، وتتعرض هيبة الحكم للخطر ، ويجد الأعداء ثغرة ينفذون منها إلينا . . » .

- «دعك من هذا الهراء يا عنتر . . الشعب منا ونحن منه ، وعندما ينعم بالحرية والاقتصاد الحر ، فسوف يدافع عن الوطن بكل ما يملك . . » .

- «دائمًا يا سيدى يوجد الخونة والمأجورون» .

- «عندئذ نتصرف حسب ما يقتصيه الحال يا عنتر . . » .

- «إن خوفى عليك أنت بالذات . . » .

- «كيف؟؟» .

- «شعبنا لم يصل إلى المستوى الحضارى الذى يجعله يقدر

معنى الحرية . . إنه فى مرحلة المراهقة . . بل الطفولة . . ولا ضمان سوى سيف المعز وذهبه . . العصا . . ولا شى سوى العصا . . » .

- «اسمع يا عنتر . . لست أبلهًا ولا ساذجًا . . إن عصاى من نوع آخر . . سوف يكون كل شيء بالقانون . . » .

بدا الغضب على وجه عنتر وقال :

- «القانون؟؟» .

- «نعم . . » .

- «أنت القانون يا سيدى . . » .

- «أعرف . . » .

- «والناس دائمًا يتحايلون على القانون المكتوب ، ويفلتون . . وهكذا تضيع الحكومة . . وتضيع هيبتها . . » .

ابتسم الرئيس الجديد ، ودار بكرسيه المتحرك يمينًا ويسارًا ، وأخذ نفسًا عميقًا من سيجاره الضخم ، وقال :

- «سوف أشجع تيار المعارضة» .

- «سيفوزون فى أية انتخابات حرة ، وسيلتف الشعب من حولهم . . » .

- «وأنت؟ الثورة؟؟» .

- «سوف أرسم المدى الذى يتحركون داخله . . » .

- «ربما يفلت الأمر من يدك . . » .

- «عندئذ ألبس البدلة الصفراء من جديد» .

- «ولِمَ هذا العناء كله؟» .

- «تلك فلسفتى . . لقد كانت سياسة الرئيس السابق فاسدة، أفلست بسببها البلاد، وفسدت الأخلاق، وعذب الأحرار، وهكذا خسرنا كل شىء» .

صمت عنتر برهة، ثم قال :

- «والتيار الدينى؟؟» .

- «ماذا تقصد؟؟» .

عداؤنا معه عميق الجذور، ولقد قتلنا منهم الكثيرين، وشننا عليهم حرب إبادة، والثأر قديم، وأنت تعرف أن هناك إجماعًا دوليًا وداخليًا على القضاء عليهم، وإذا تركناهم . . فقد يعصفون بنا . . إنهم القوة الوحيدة القادرة فى خضم الشعب . . وإذا أردت أن تهادنهم، فسأخلى مكانى، وأهاجر إلى الخارج . . » .

ابتسم الرئيس الجديد :

- «لا تخف . . سوف يتكلمون . . ويرفعون القضايا ضد من عذبوهم . . وسيؤلفون الكتب عن مأساتهم وضحاياهم،

وينشغلون بذلك انشغالاً كبيرًا . . فإذا رأيت أنهم يتضخمون ويتعدون الخط المرسوم . . فسوف أسحقهم . . نعم أسحقهم بالقانون . . عندئذ سيقول الناس إننى رددت لهم اعتبارهم، وأحسنت إليهم، لكنهم تنكروا لليد البيضاء التى امتدت إليهم بالصفح والعون . . وعندئذ لن يجدوا تيارًا يتعاطف معهم فى البلد . . فى هذا الوقت أستطيع أن أفعل بهم ما أشاء . . ».

وفى هذا الوقت دخل على الرئيس الجديد مدير مكتبه قائلاً :

- «سيدى الرئيس . . إن عشرات الألوف من الهيئات الشعبية ونقابات العمال والفلاحين وقادة أسلحة الجيش قد قدموا لمبايعتك وتهنئتك . . ».

●●●

ساحة الحساب المبدئى تغص بالخلائق، والظمأ يشتد بالزعيم، والألسنة تتدلى، واللهاث المتصاعد كألسنة اللهب، وصيحات الاسترحام تشق الأجواء، والزحام الرهيب يكاد يزهق الأرواح، والزعيم يتطوح يمينًا ويسارًا، تحت ضغط الحركة الموارة التى لا ترحم . . تمنى الزعيم فى تلك اللحظات أن يجد ركنًا صغيرًا . . أو حتى زنزانة ضيقة . . ينفرد فيها بنفسه، ويجمع شتات فكره . . أيمكن أن تكون حياته بكل ما فيها زيف وهراء؟؟ إن بطانة الأمس قد نسوه . . إنهم يسبحون بمجد الرئيس الجديد . . والكارثة أنهم

يذكرون الأيام الخوالى فى امتعاض . . إنه الزعيم الذى طالما طأطأت له الرؤوس . . ها هم اليوم يرجمون عهده، ويسخرون من تصرفاته . . حتى الصحف أخذت تغمز فى تاريخه، وتلقى على رأسه بالتهم، وتنسب إليه الكوارث التى حاقت بالبلاد . . قلة قليلة هم الذين ما زالوا يذكرونه بالخير، ويدافعون عن تاريخه، أهكذا الإنسان عندما يموت؟؟

وكم كانت دهشة الزعيم حينما سمع جاره السجّان الصغير يقول :

– «نعم . . هكذا . . فالموت عجز كامل . . وهل تستطيع الآن أن تنتقم من أحد؟؟

قال الزعيم فى دهشة :

– «وكيف عرفت ما أفكر فيه؟؟» .

– «فى هذا المكان يقرأ الناس أفكار بعضهم البعض» .

– «لكنى لا أستطيع قراءة فكر واحد منكم . . » .

– «لأنك أسود قلبًا منى، ولأنك محتاج إلى فترة طويلة من العذاب حتى تستطيع . . ألم أقل لك إننى هنا منذ عامين!!» .

قال الزعيم وقد تندت عيناه بالدموع :

– «يا إلهى . . حتى أفكارى لا أستطيع أن أخفيها . . إنها أخص خصوصياتى . . » .

- «تلك مشيئة الله . . » .

- «أقسم لك . . لقد أحببت شعبى أيها السجّان . . » .

قهقه السجّان فى سخرية وقال :

- «لقد أحببت نفسك ، وعشقت مجدك ، وأسكرتك القوة ، وطربت لهتافات الجماهير الرعناء . . ألم تكن تحتقرهم وتتعالى عليهم؟؟ إنني أعرفك . . » .

كنت تكره من يقول لك «لا» ، وتحب من يقول لك «نعم» ، وبالإكراه والإرهاب تحول الناس زيفًا ونفاقًا إلى قول «نعم» ، وهم فى قرارة أنفسهم يقولون «لا» عظمة الحاكم تتجلى فى قبوله لقول «لا» . . وليس من المعقول أن تدعى الحرية وأنت لا تقبل كلمة من معارض . . لقد حاكمت بعض الناس لمجرد أنهم قالوا طرفة أو نكتة ، هل نسيت؟ ! استمع إلىّ جيدًا أتعرف قضية «الحشاش» الشهيرة . . » .

قال الزعيم :

- «أى حشاش» .

- «رجل كان يجلس فى مقهى منتشيًا بعد أن جذب أنفاسًا من الحشيش . . وكان يستمع إلى تسجيل عن حادث إطلاق الرصاص عليك الذى نجوت منه . . فقال الحشاش «عجبًا . . ست رصاصات ولا تصيب واحدة منها قلبه» وكان من سوء حظه أن أحد المخبرين

السريين كان يقف على مقربة منه، فألقى القبض عليه، وقدم للمحاكمة وكانت تهمته: تمنّى اغتيال سيادة الزعيم.. أتعرف كم قضى هذا المسكين فى السجن؟؟ ثلاثة أعوام ونصفًا برغم أن قاضى المحكمة الزائفة حكم عليه السجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ.. المفروض أن يخرج فوراً.. لكنه لم يخرج.. ومات طفله الصغير.. وطلقت زوجته.. وترك ابنه الأكبر المدرسة ليعمل كواءً.. أما المسكين فقد تصوف.. وأقبل على الصلاة لأول مرة فى حياته..».

قال الزعيم:

- «وهذا أمر تافه».

- «دمار أسرة.. ووفاة طفل.. وضيعة مستقبل أمر تافه فى نظرك.. أتعرف عدد الألوف التى ساقها مخبروك السريون إلى ظلمات السجون..».

- «أعرف».

وبينما هما يتكلمان طغت عليهما موجة عارمة من الزحام، فانكفأ الزعيم على وجهه، فتلوث من ماء المستنقع الذى يخوص فيه، فجذبه السجّان الصغير، وأوقفه ثانية على قدميه، وقال الزعيم فى غضب:

- «كادت تسحقنى الأقدام وأموت» .

- «وتموت؟؟» .

- «أجل» .

- «يا ليت . . الموت هنا نعمة كبرى . . لقد كتب علينا أن نظل هكذا . . لقد بدأت رحلة الشقاء والمعاناة التى تبدو بلا نهاية . . هنا لا شىء يباع أو يشترى ، ولا استدراك لما فات . . لقد انتهت فترة العمل فى الدنيا ، ونحن الآن فى مرحلة الحساب . . وبعدها مرحلة العذاب أو الثواب . . » .

تلفت الزعيم فى غضب وتمرد ، إنه ينظر إلى منصة الحساب فيجدها بعيدة جداً ، والظمأ الحارق يكاد يصيبه بالجنون ، حتى إنه يفكر جديًا فى الاعتراف بكل جرائمه حتى يتخلص من هذا العناء ، بل إنه على استعداد أن يعترف بما لم تقترف يداه حتى يضع حدًا للمأساة ، قال السجان الصغير الذى يقرأ أفكاره بوضوح :

- «أتعرف؟؟» .

- «ماذا ! !» .

- «قصة صلاح الأنور؟؟» .

- «مَنْ صلاح الأنور» .

- «أحد ضحاياك» عندما ذهب زبانيتك للقبض عليه، هرب مضطرًا من النافذة. . قبضوا على أمه وأختيه. . وجد المسكين نفسه مضطرًا لأن يسلم نفسه. . اتهموه بمؤامرة لاغتيالك لا يعلم عنها شيئًا. . أنكر. . ضربوه وعذبوه ليال طويلة. . اضطر أن يؤلف مؤامرة لقتلك وذكر فيها عددًا من أسماء المتهمين الذين قرأ عنهم فى الصحف. . أتدرى لماذا؟؟ لأنه أراد أن ينام. . ويشرب جرعة ماء. . وما أن تم له ذلك، حتى أنكر كل شىء. . لم يصدقوه. . لكن شركاءه المتهمين فى الجريمة المصطنعة. . قالوا إنهم لم يروه فى حياتهم. . وقضى المسكين مع ذلك فى السجن سنوات هو وأمه وأختاه. . أتعرف قصة زكريا المشتولى. . هذا المسكين اتهموه بحيازة سلاح. . ضربوه. . ضربوه. . وهو لا يعرف شيئًا عن السلاح. وظلوا يضربونه حتى مات. . ويحك. . كانت أوامرك واضحة. . لقد أبحت لكلاب الصيد من مخابراتك أن يقتلوا كيف شاءوا. . أردت القضاء تمامًا على . معارضيك. . هل تنكر. . أنك قلت فى خطبة شهيرة إنك مستعد للتضحية بربع الشعب ليعيش الثلاثة أرباع الباقية فى سلام!! فهل عاش الناس فى سلام؟؟ أيها الحاقد الكبير. . أنا أعرف فلسفتك. . لا تحاول أن تخدع نفسك. . الشعب أسرة كبيرة. . وأنت رب الأسرة. . وعلى ضوء ذلك كان يجب أن تتصرف. .

أمسك الزعيم برأسه في أسى، وصرخ ضارعًا:

- «أريد أن أنام».

- «لا نوم هنا أيها الزعيم.. أنا لم أنم منذ عامين..».

- «سأجن..».

- «ولن يصيبك الجنون.. هذا موقف الصحوة الأبدية..».

- «ليتنى كنت فلاحًا بسيطًا أجيرًا.. أو حمالاً.. بلا مسؤولية ليتنى.. انتهى العمر فى لحظات.. انتهى بكل صخبه وجماله وقبحه، وانتصاراته وانهزاماته.. ولا تستطيع الآن الملايين التى كانت تهتف باسمى أن تفعل لى شيئًا..».

جذبه السجان الصغير من كتفه وقال:

- «بل قل ليتك كنت واحدًا من ضحاياك.. إنهم يعيشون الآن فى رحاب النعيم والمجد والخلود..».

حك الزعيم عينيه بشدة، وهز رأسه فى ضيق قائلاً:

- «لا أصدق ما أرى».

- «إنه الندم الأكبر.. هذا يوم الندم..».

قال الزعيم:

- «سمعت أحد أساتذتى القدامى الذين نسيتهم يقول دائمًا الندم طريق التوبة. . » .

●●●

أصبح الزعيم رث الثياب، طبقات العرق والغبار تسد مسام جسده، وعيناه المقروحتان تطفحان صديدًا، الروائح الكريهة تزكم أنفه، والأجساد من حوله تلتصق به التصاقًا شديدًا، وأينما تلفت يجد الإهمال والازدراء، كلٌ مشغول بنفسه عن الآخرين، إنه ليس مجرد الندم. . ولكن الأنانية أيضًا. . هنا لا يعرف الناس الحب والإخاء، حشدٌ هائل من التعاسة والشقاء، يجلله الندم والخوف والأنانية والظمأ. .

وتنهد الزعيم بينه وبين نفسه: «لو كنت حيًا لأمرت وزارة التربية والتعليم أن تبرز فى مناهج المدارس موضوع «يوم الحساب». . لقد أنسانى مجد الدنيا كل شىء. . أنسانى ذلك الموقف الرهيب، وكان بالإمكان بقليل من التفكير العميق أن أضع يدى على الحقيقة. . لكننى كنت أحتقر النصوص القديمة، ولا ألقى سمعًا لوعّاظ المنابر، بل إن معظم الخطب التى استمعت إليها فى المساجد، كانت تسبح بمجدى وترفعنى إلى مصاف الأنبياء والصديقين. . كان وزير الأوقاف حريصًا على أن يطلع بنفسه على الخطب التى تلقى أمامى، وكان العلماء الرسميون يصدرون

الفتاوى التى تؤيد وجهة نظرى، حتى صدقت عبقريتى، وصدقت زعمهم. . أى خراب كان يعشش فى بلادى؟؟ ترى أأنا الذى صنعت هذا الخراب؟؟».

وأفاق الزعيم من شروده على صوت السجان الصغير يقول:

- «نعم. . أنت صانع هذا الفساد كله والمسؤول عنه. .».

- «وهل تسمعنى؟؟».

- «قلت لك إنى أقرأ كل ما تفكر فيه. .».

- «ولماذا أنت بالذات؟».

- «لقد انكشف الغطاء. ولكل منا صاحب يناجيه إذا أراد وخاصة فى الأيام الأولى هنا. .».

- «دعنى وشأنى أيها الرجل. .».

ابتسم السجان الصغير فى سخرية وقال:

- «أنا عزاؤك الوحيد فى هذا المكان. . حاول أن تكلم أى إنسان هنا. . لن يرد عليك أحد. .».

صمت الزعيم برهة، ثم قال:

- «وأنت. . ما هى جريمتك؟».

- «كتمت الشهادة. . .».

- «الشهادة؟؟».

- «نعم..».

- «فى يوم خفارتى بالسجن جاءوا وقتلوه.. قتلوه أمام عينى.. ثم أخذوه ودفنوه.. وزعموا أنه هرب من السجن، وعندما رفع أهله الأمر للقضاء أنكرت كل شىء.. وهكذا ضاع دمه هدراً.. ونَعِمَ المجرمون بالحرية والمناصب، وأنعم علىّ السلطان بوسام.. لقد رأيت الشهيد هنا. رأيته يخفق بأجنحته البيضاء على رؤوسنا.. الغريب.. إنه كان يبتسم لى.. المصيبة أيها الزعيم أكبر من ذلك.. لقد كنا عبيداً فى محفل الطغاة.. وكنا الأدوات التى يبطشون بها بالشرفاء.. وأنا رجل فقير.. حفظت القرآن فى صغرى، لكننى نسيته.. كيف نسيت لا أدرى.. لقد بعت أعظم الأشياء بدراهم قليلة.. علىّ اللعنة.. علىّ اللعنة.. ما كان أتفه تفكيرى، وأحقر آمالى!! دعنا أيها الزعيم نعاقر كؤوس الندم.. ولنردد معًا:

واندماه.. واندماه.. واندماه».

وانطلق صوت السجان الصغير والزعيم معًا، واختلط صياحهما بالهدير الصاخب، والظمأ يحرق القلوب والأفواه والحلوق..

●●●

(٣)

- «أيها الشاب الرفيق . . تمنيت أنى لم أولد . . إن العبء ثقيل ، والعاقبة وخيمة . . هذا جناه أبى علىّ ، وما جنيت على أحد . . » .

صاح السجان :

- «بل جنيت . . تلك كلمة أبى العلاء . . ظن الشاعر المسكين أنه بعدم زواجه لم ينجب أبناءً للعذاب . . ويحه . . لقد جنى على نفسه . . ثم أنه ولد أفكاراً جنت على الكثيرين . . وأنت أيها الزعيم . . جنيت على نفسك . . وعلى شعبك . . ضحاياك بالملايين . . الكثيرون بسببك عاشوا فى جحيم الدماء والدموع والآهات . . قلت لك لا مهرب . . الألفاظ الجوفاء هنا لا قيمة لها . . سوف ينظر إليك الخلق بسخرية . . طائراتك السوداء فتكت بالآلاف على قمم الجبال والسفوح . . وغرورك الأحمق مزق الجثث فى عرض الصحارى . . وأنانيتك البشعة كتمت أنفاس الأبرياء خلف القضبان . . » .

صرخ الزعيم :

- «أغلق فمك وإلا . . » .

- «وإلا ماذا؟؟ أنت لا تساوى اليوم بعرة على الطريق . . » .

تململ الزعيم فى غضب :

- «إنك سيئ الخلق، سليط اللسان . .».

ضحك السجان الصغير وقال :

- «من فوق منبرك العالى كنت تسب وتلعن حكام الأرض . . وكانت عباراتك البذيئة كمومسات الليل . .».

أطبق الزعيم على عنقه فى غيظ، أخذ يعتصره، والسجان الصغير يقهقه، فاستبد الضيق بالزعيم أكثر وأكثر، فرفع يديه المتقلصتين، ثم دأب يخمش وجه السجان وعينيه بأظافره الطويلة المتسخة، لكن السجان يقهقه، شعر الزعيم بالإنهاك، فأرخى يديه وأهدابه فى عجز، وتنهد فى حسرة، بينما قال السجان :

- «هذا جزاء من عذابك . . كلانا عذاب للآخر . . قدر لا مفر منه . .».

- «العجز يُميتنى ألف مرة كل لحظة . .».

كانت إشارة من يده تحرك القوات، كلمته حكم نهائى لا نقض له، رأيه قانون، هواه حكمة، غضبه كارثة من كوارث الطبيعة، تحدى كل شىء حتى الرحمة، أسقط العجز من حسابه، أنكر قوانين النقد والإرادة الإنسانية، الإعلام صلوات فى محرابه، ودواوين الشعر والغناء جوقة له، هاجم السماء والأرض، سكر بالقوة والطاعة التامة . . واليوم لا شىء . . حتى جرعة ماء . . أو

مجرد النوم على حصير مهترىء، بل إنه لا يستطيع أن يختلى بنفسه، ألم يكن السجن الذى أعده لمعارضيه أرحم من هذا المكان؟؟ لو علم خصماؤه ما يعانيه الآن لأشفقوا عليه، إنه يعرفهم . . أعداء طيبون سرعان ما يتسامحون لو أتوا بهم ورأوا عذابه وذلته، لبكوا من أجله . .

انهمرت دموعه فى نوبة تشنجية وصرخ :

- «أنا مسكين . . » .

- «أنت أيها الزعيم المفترى؟؟» .

- «ليكن . . » .

- «وقال أحد الأطباء عنى أنى مصاب بالشيزوفرانيا . . » .

- «نعم . . ودست مخابراتك لك السم . . » .

- «لا أعلم . . ربما كانت إشاعة . . » .

- «كنت تحاكم من ينشر خبرًا صادقًا بتهمة ترويج الإشاعات . . » .

- «وهذه الأمور الصغيرة لم تكن تشغلنى . . » .

- «أنت مهندس النظام، وصاحب فلسفته . . » .

- «أيها السجان الوغد . . ماذا أبقيت لملائكة الحساب؟؟ دعنى وشأنى . . » .

- «ستعود إلىّ ذليلاً . . » .

- «أنت؟؟ إنك تعس مثلى . . » .

- «العذاب مقامات . . يا كبير المقام . . » .

- «سخريتك من جهنم» .

- «وعنادك وزر كبير . . » .

إنه يتذكرها أمه ، تلك الحانية المسكينة ، ماتت مبكراً ، أحبته حبًا جمًا ، وخلفت وراءها حسرة قاتلة بعد موتها . . غاص نبع الحنان ، أبناء الأثرياء كانوا يسخرون من حلته وحذائه ومن أبيه ، حلم بالمجد منذ صغره ، أراد أن يكون ذا بأس وبطش ، سوف يذل كل من تميز عنه فى شىء ، التعساء مثله هم أحق بالخير والحياة ، والمنعمون لا بد أن يذوقوا مرارة القهر والحرمان ، ذلك الميراث المشترك الأعظم للإنسان ، لا إنسانية لمن لم يجرب التعاسة ، كانت أمه تحكم عليه بالقطاء فى الشتاء ، وتموّنه بالبطاطا الساخنة ، وتغدق عليه بالمليمات . . وعندما ماتت أصبح كالكم المهمل . . كان يسعل ويتوجع من شدة البرد . . والجوع يقرصه فى أحيان كثيرة . . اشتهى أشياء كثيرة وحلم بها ، لكنها لم تتحقق آنذاك . . فى المرحلة الثانوية أحب فتاة من علية القوم ، كان يرقبها من بعيد . . واصطنع المصادفات حتى يلتقى بها ، لكنها لم ترد على تحيته . . رمقته بإهمال وانصرفت عنه ، لم ينس ذلك الموقف المشؤوم ، مرت سنون

طويلة . . أخذ بثأره منها ومن زوجها وأولادها عندما ابتسمت له الدنيا، وأصبح الحاكم بأمره . . فرض الحراسة على الحب القديم من طرف واحد . . فى صحارى «النقب» كاد يفتك به العدو ومن معه، لا رعى الله تلك الأيام . . أيام الخوف القاتل . . كان على استعداد لأن يفعل أى شيء لينجو . . ويوم أن وصلت إليه الإمدادات فى الأرض المحاصرة، استقبل الفدائيين بالعناق والقبلات والشكر العميق . . يا للقدر! معظم هؤلاء الأحباب تحولوا عنه . . ولهذا بعد أن جلس على أريكة الحكم ساقهم إلى السجون والموت . .

وسمع الزعيم رفيقه السجان يقول :

– «لم يتحولوا عنك . . أنت الذى غدرت وخنت . . ».

– «أتسمع خواطرى . . ».

– «كأنها ميكروفون يدوى . . ».

– «اعترضونى أيها الأبله . . ».

– «كانوا أصحاب رأى وحق . . ».

– «لقد أرادوا إزاحتى عن مكانى الذى صنعته بعرقى وكفاحى وثورتى . . ».

سدد إليه السجان الصغير نظرات حادة وقال :

– «حاولوا إفهامك أن تلتزم بمنهج الله . . ».

- «منهج الله . . » .

- «أجل . . » .

- «لكنى كنت أسير على الطريق الصحيح» .

أمسك السجان بكتفه ، وهزه بعنف قائلاً :

- «انظر خلفك . . وكن صادقًا ولو مرة واحدة . . ماذا تركت وراءك؟؟ الهزيمة . . الجوع . . الخوف . . الديون . . الأفكار السامة . . الضحايا . . » .

هدر الزعيم فى غضب :

- «تركت الصناعات الثقيلة ، والقومية المتنامية ، والوعى الشامل بقضايا البلاد ، والنهوض الاقتصادى ، ومواثيق العدل والحرية ، وانتشار التعليم . . وحقوق العمال والفلاحين المؤمنة . . » .

وكزه السجان فى صدره وصاح :

- «حاولت أن توظف الطاقات والمشاريع والسياسات لخدمة مجدك . . البلاد أفلست برغم ما قلت . . وجيشك لم تزل قصته أضحوكة . . واللصوص سرقوا العلم والمصانع ، وأهدروا حقوق العمال والفلاحين . . حاولت توفير زاد الجسد ، وقضيت قضاء مبرمًا على زاد الروح . . فتحطم البدن والروح . . وها هم الآن

يعفون على آثارك، ويروون مهازلك. . انظر الكتب والصفحات التى يسرودونها عن مخازيك. . أصبحت مضغة فى الأفواه. . ».

صرخ الزعيم فى حدة:

- «جبناء. . ».

- «الجبان أنت. . ».

- اخرس. . ».

- «أتريد أن تفرض بطشك وسلطانك على الزمان الآتى؟؟ لقد مت وانتهى الأمر. . ».

- «والمبادئ».

- «مبادؤك أيضًا ماتت؟؟».

- «كيف؟؟».

- «لأنها فاسدة. . ولأنها لا تصلح لكل زمان. . ولأنها بعيدة عن منهج الله. . ».

خفض الزعيم رأسه وتمتم:

- «هل يموت كل شىء؟؟».

- «الله باق. . ».

- «ثم ماذا؟».

- «الخير . . الحب . . الـ».

- «أعرف . . ».

- «لا قيمة للمعرفة المجردة أيها الزعيم . . ».

رشقه الزعيم بنظرة متشفية وقال :

- «وأنت؟؟».

-«وغد جبان مثلك . . ».

- «نحن فى الهوى سوى . . ».

- «لكننى لا أغالط . . ».

- «لأنك عشت تافهًا بلا مبادئ . . وأنا آمنت بشيء، وأخرجته إلى حيز الوجود . . ».

رماه السجان بنظرة ساخرة، وقال :

- «ولهذا فأنا أفضل منك، كانت دائرة إجرامى محدودة، لم أبرر خطئى، وأجعل منه فلسفة، وأرغم الناس على الأخذ بها . . زوجتى قالت لى أنت ظالم . . وأبنائى طالبونى بقول الحقيقة أمام القضاء . . لكن تعلقى بالحياة وبأسرتى ومصدر رزقى أغرق إنسانيتى فى مستنقع الكذب والزور . . إن آثامك أيها الزعيم تمتد . . تمتد إلى حيث وصل صوتك الرنان، وكلماتك الساخرة،

ومبادئك الضالة . . أنت عالَم كبير من الإثم والضلال . . لقد مات فسادى بموتى . . أما أنت . . ويلك . . لم تزل سمومك تسرى فى عقول المخدوعين والضالين . . أعرفت الآن أيها الزعيم الأوحد» أين أنت . . وأين أنا؟؟

قال الزعيم فى مرارة :

- «نحن فى موضع واحد . . سبقتنى فى الموت بعامين . . وها نحن نقف أو نسير معًا . . وقد يعنى هذا أننى أفضل منك . . »

- «لا تراوغ . . فأنا معك لأنى مكلف بمهمة . . » .

صرخ الزعيم فى دهشة :

- «أية مهمة؟؟» .

- «أن أكون معك . . » .

دفعه الزعيم فى ثورة عامة وهتف :

- «عميل . . مأجور . . خائن . . » .

ابتسم السجان وقال :

- «لحساب من أعمل؟» .

- «ربما الرجعية . . وربما المخابرات المركزية . . أو الموساد . . أو . . » .

قاطعه السجان قائلاً:

- «لا معنى لهذه الكلمات هنا. . لقد تحولت إلى جثث متعفنة. .».

تلفت الزعيم كالمجنون يمنة ويسرة وردد:

- «مَنْ يدرى؟؟ ربما ما أراه الآن مجرد حيلة ماكرة، مؤامرة من المؤمرات. . كانوا جميعًا يكرهوننى ويخافون منى، لولا أنى لا أؤمن بالسحر مطلقًا، لقلت أن ما أراه هو السحر. . أنا لم أمت. . أنا لم أمت، إن ما أراه لعبة أمريكية. . أو خديعة إمبريالية. . ربما استطاع بعضهم أن يسقينى عقاراً للهلوسة. . الأمريكان حيلهم لا تنفد. . أنا أعرفهم. . ولهذا فكرت فى مهادنتهم. . لم أكن عدواً لهم بالمعنى الحقيقى؟ كان من الضرورى أن أفعل ما فعلت. . إنه لأمر ضرورى كى يرضى عنى الروس. . إنها مؤامرة. . مؤامرة. . مؤامرة. .».

ودوت صفعة على وجه الزعيم، الذى فغر فاه دهشة، وجاءه صوت السجان الصغير يقول:

- «أفق لنفسك أيها الميت. .».

وعادت دموع الزعيم للانهمار.

●●●

دارت به الأرض، اختلط كل شيء، تحول العالم إلى كتلة من السواد الكالح، قنابل تنفجر أو شيء يشبه القنابل، وتنبعث من قلب الرعب أدخنة معتكرة، وبريق زيتي شيطاني متقطع، يزيد الصورة هولاً وغموضًا وحيرة.. وأخذ يصرخ.. ويصرخ.. ويستغيث.. وينادي بأعلى صوته.. لكن صوته محتبس، يكاد يختنق تمامًا، إنه أمر أصعب من الموت.. لكنه لا يموت.. بل يتعذب ويتعذب، أخذ يموء كطفل أنهكه الرعب.

شعر بيد حانية تهزه في رفق، لكن بإصرار.. تحرك وأخذ نفسًا عميقًا، هب جالسًا، وفتح عينيه وهو لا يكاد يصدق.. إنها غرفة نومه.. زوجه إلى جواره تنظر إليه في دهشة وحيرة، كان يرتجف من الخوف وهو شيء لم تعهده فيه من قبل، وأخذ يهذي بكلمات مبهمة تشي بالكثير مما بداخله، وهتفت محملقة:

- «ماذا بك؟؟».

تمالك نفسه، وقال:

- «كابوس، يا له من كابوس!!».

- «أتعاني شيئًا من الألم؟؟».

- «آلام رهيبة في كل أعضائي خاصة الصداع، والتوتر وعسر الهضم.. وأطرافي كلها..».

- «أنستدعى الأطباء؟؟».

- «ليس الآن . .».

وطلب الماء، وأخذ يجرع بشراهة، تجشأ، ثم تمتم:

- «إنى منهك تمامًا، لكنى أخاف أن أنام».

- «غدًا عيد العمال، ويجب أن تستريح».

- «نعم . . تذكرت . . إنه يوم عصيب».

وكان لا بد من أخذ رأى الطبيب المناوب الذى أشار بأخذ قرص مخدر، لكى يستغرق فى نومه حتى الصباح، ولكى يستطيع مواجهة الجماهير التى تعشقه، وليعزف لحنه الأثير عن الحب والحرية، والعدالة، والمساواة، وليشن الحرب الضارية ضد الإمبريالية والرجعية والفساد، وليواصل معركة الاستنزاف، ولينذر الخونة والعملاء وأعداء الشعب.

وليمض فى الطريق . . الطريق نفسه، فالقصة لم تتم فصولاً . . ومن البلاهة أن يستسلم لهواجس الأحلام وأضغاثها، أو يخرج عن النهج الذى خطه بنفسه بسبب كابوس مزعج مقزز، مهما كانت بشاعة ذلك الكابوس، ولولا أنه لا يؤمن بالخرافات لظن أن ذلك الكابوس كان بفعل فاعل من أولئك الأعداء الذين يسخرون الجن

لأغراضهم الدنيئة . . وورد على ذهنه خاطر غريب ، لماذا لا يصدر أوامره لرجال المخابرات أن يتحروا عن هذه الفئة من الناس ، ويقبضوا عليهم ، ويصادروا ما تحت حوزتهم من كتب عن الجن والسحر وتحضير الأرواح؟؟ إنه بذلك ينقى الفكر والثقافة من هذه الخزعبلات التى لا تتفق وطبيعة الخط العلمانى الذى ينتهجه ، لكنه عاد وتذكر «أقوال خبير أجنبى متمرس : «دع الشعب يتلهى ويرفه عن نفسه ببعض الأوهام والأحلام والأساطير والخرافات ، حتى لا يفيض الكيل ، ويفلت الزمام» .

وأخذ المنوّم، ثم نام . .



الغريب

أنا ممن يحلو لهم مراقبة الأحداث، أعشق النظر للآخرين، وخاصة زملائى فى الشركة التى أعمل فيها، وهى شركة مقاولات هندسية وأعمال تجارية، يمتد نشاطها فى شتى إمارات الخليج، وأنا أعمل فى هذه الشركة منذ أربع سنوات. . لكن «حسّان» هو أغرب شخص رأته عيناى. . وحسان هو سكرتير المدير. . كل مدير يأتى، نظن أنه لا شك سوف يستبدل حسان بشخص آخر يضع فيه ثقته، لكن الأيام تمر ونحن ننتظر التغيير الكبير، دون فائدة. . سرعان ما يكتسب حسان ثقة المدير الجديد، ويسيطر تمامًا على عواطفة، ويقنعه بكفاءته وقدراته الخارقة. . والأعجب من ذلك أننا بعد العمل نرى حسان وهو يحمل على كتفه، أو بين يديه طفلاً من أولاد المدير، أو يمضى خلف زوجة المدير كالتابع الأمين الوفى، متجولاً بين المتاجر أو الأسواق.

وأنا أعجب أشد العجب، كيف يستطيع مخلوق، أن يحظى بحب كل مدير، ويرضى كل عهد جديد، ويساير كل مبدأ هذا فوق طاقة البشر!!!

إننى أتذكر جيدًا هذا الـ«حسان» . . وأكرهه من كل قلبى ، جاءنا هذه المرة مدير معروف بتمسكه بالدين ، وتشدده فى مراعاة التقاليد والعرف ، فزوجته لا يراها أحد إلا خلف عباءتها الضافية ، وحجابها الكثيف ، والحفلات فى بيته ممنوعة إطلاقًا ، كان المدير جادًا صارمًا متزمتًا ، ونحن نعرف أن حسان رجل «متفتح!» ، لا يستغنى عن «الويسكى» ، والسهرات الشجية ، والغناء والرقص ، كما أنه شغوف بالنكات البذيئة ، وسرد الفضائح التى تفوح روائحها فى بعض الأوساط الخاصة . . وجلست أرقب من خلف الزجاج ، وأنا فى حجرة «الأرشيف» أو السجلات ، ما يجرى بالشركة من آن الآخر . . كنت أتملى فى وجه «حسان» فأراه قلقًا متوترًا شاحبًا . . وقلت لنفسى . . لكل أجل كتاب . . ولكل عمر نهاية . . لن يستقيم حال حسان مع المدير الجديد الذى يطلقون عليه «الحاج عدنان» . . تلك بداية النهاية للسكرتير البارع .

وجلست أنتظر . . وذات مساء مال علىّ حسان مصادفة . . لم يكن من عادته أن يأوى إلى ذلك الجحر الضيق الذى أشغله أنا وملفاتى وسجلاتى فى الشركة . . وثبت من مكانى دهشًا ، وطلبت له القهوة ، ثم أبى أن يجلس . . كان يتجول فى الغرفة ، ويحدثنى دون أن يسدد نظراته إلىّ ، يتطلع إلى آفاق مبهمة عبر السقف المعتم ، أو من خلال النافدة ذات الزجاج المغبر . . وتمتم فى حسرة :

- «كل شيء إلى زوال . . » .

دق قلبى فى شماتة، شممت من رائحة كلماته القليلة، كآبة اليأس والهزيمة، وأطلت من عينيه مذّلة وهوان قاتل، وانحرفت زاويتا فمه إلى أسفل، كمن يوشك على البكاء، وقلت وأنا أغالب فضولى الشديد! .

- «دع الأمر لله يا رجل . . » .

التفت إلىّ وقال فى حزن :

- «أستاذ على إننى ضقت ذرعًا بالحياة . . أصبحت ثقيلة على قلبى . . » .

- «ما عهدتك هكذا . . . » .

وشرد إلى بعيد، ثم همس :

- «أنا على سفر دائم . . كل فترة أحزم أمتعنى، وأنقل كواهلى، وأنطلق إلى ميناء جديد . . كالمطارد . . » .

ضحكت مواسيًا وقلت :

- «أنت لم تغادر الشركة منذ خمس سنوات . . » .

- «إننى أقصد سفرًا من نوع آخر . . إننى أرتحل من حال إلى حال . . كان المدير الأول مغرمًا بألعاب الورق، ولا بد أن أجاريه،

وكـان الثـانى يذوب شـوقًا للنسـاء، وإذا لم أعـمل له كـقوّاد لقطع رزقى، أما الثالث فقد كـان لصًا ظريفًا. . ذا فراسة نادرة. . وأما الرابع فـقد كان لا يفيق من الشراب طول ليله. . يرهب زوجته، وينفذ وصاياها. . ومن ثم كان لا بد لى أن أذل لمركز النفوذ. . ».

وقبل أن أرد عليه بكلمة قال:

- «وهكذا ترانى كل يوم فى حال. . إما مقامر. . أو تاجر للرقيق الأبيض. . أو لص. . أو سكير عربيد. . أو تابع للست. . ».

قلت له دون أن أطيل التفكير:

- «ولِمَ لم تصمد منذ البداية؟؟».

- «لقمـة العيش. . الأفـواه الجـائعة. . التى تنتظر كل وقت. . الحـيـاة التى لا ترحـم. . آه. . رأيت هنا مـخـتلف الجنسـيـات واللهجات. . والأفكار. . صدقنى يا أستاذ علي. . هنا أشياء كثيرة تذوى وتموت. . ومـا نحققه أنا وأنت من ثراء ما هو إلا ثمر خـادع يمتص غذاءه وريه من عفن وجيفة السلوك الشائن وأنا لم أعد أطيق هذه الحياة».

وتركنى حسان فى حيرتى ومضى، الحقيقة أن شماتتى أخذت تتضـائل، وحقدى عليـه بدا تافهًا صـغيراً، وشعرت بعطف بالغ نحوه، وكـيف لا أذوب شـفـقـة عـليه، وأنا أرى شـحوب وجـهـه،

وعينيه الحائرين، وأتصور فى الوقت نفسه الأفواه الجائعة التى حدثنى عنها، والمستقبل المخيف الذى ألمح إليه بسبب لعبته المكشوفة التى لم تعد تنطلى على أحد. . وخيل إلىّ أن ماضى حسان السيئ وحقد الزملاء عليه، سوف يؤديان فى النهاية إلى فصله من العمل، فكيف يمكن للمدير الجديد أن يثق فى رجل سكير عربيد قواد. . إلخ. . ؟؟ وبدا لى أن حسان سيعانى من أزمة قد تعرض مستقبله ومستقبل أسرته للخطر؛ لأن حسان إذا ما وقع فستنهال عليه عشرات الأحذية، وآلاف السهام التى تكرهه.

وانزوى حسان جانبًا، وخرج الطامعون من موظفى الشركة يهرولون نحو المدير الجديد، كل يعرض خدماته ومهاراته بطريقة لطيفة، وحسان يؤدى عمله فى صمت وحزن وأدب، مكتبه القديم نفسه. . والمقعد نفسه، الحجرة نفسها، لم يتغير شيء غير حسان. . ومر علىّ حسان فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر وقال:

- «أقرضنى مائة ريال. . .».

- «مستحيل. . .».

دهش لجوابى، لكنى أسرعت موضحًا:

- «خذ ما شئت، لكننى لا أصدقك، كنا نظن أنك ترقد على كنز من الذهب. .».

دمعت عيناه، وكانت دموعه أقوى رد، فمددت يدى بالمائة ريال، وقدمتها إليه فى حياء وأسى . . تنهد وجفف أهدابه، ثم قال:

- «هل لليائسين طرق سوى الموت!!».

قلت، وأنا أرقب ذقنه غير الحليقة، وجفونه المحتقنة، وشعرات بيضاء موحية فى شاربه وفوديه:

- «ماذا دهاك؟؟ إنك تهول فى الأمر، أتخاف أن تنقل إلى عمل أقل؟ أم تظن أنهم سوف ينهون خدماتك؟؟ أيًا كان الأمر فلن نجوع . . فالأرزاق بيد الله . .».

وكم كانت دهشتى حينما سمعت حسان يصرخ فى ضراعة:

- «حبى . . باق . . سبحانه . . ملك الملوك . .».

ثم أخذ يشهق ويرتجف جسده كله، وأنا أربت على كتفه فى حنان وألم، وضممته إلى صدرى وقد انتابنى حب جارف له، وتعاطف غريب على أحزانه، وتمتمت:

- «هيهات يا حسان . . لن أتخلى عنك . . وأنت تبدى ندمًا لو وزّع على آلاف العصاة لوسعهم . .».

ورفع إلىّ وجهًا أسفًا وأردف:

- «مللت النفاق . . كرهت الأقنعة الزائفة . . حياتى أحقر حياة، الغربة أفسدت كل المعانى النبيلة فىّ . . الخوف جعلنى أدوس أسمى القيم . . الجشع جعلنى أغمض عينى عن كل ظلم، وأرضى بكل خطيئة . . وأضحك لكلمات مديرى الساقطة السمجة . . وأطرى جمال زوجته برغم دمامتها، وأبتسم فى وجه مَنْ أريد أن أبصق عليه . . ».

وابتلع حسان ريقه وقال :

- «أين أذهب؟؟ لا وجهه إلا إليه . . ».

- «مَنْ؟؟ المدير؟؟».

لوح بيده فى ضيق واشمئزاز :

- «حاشًا . . وكلا . . لن أذل لأحد بعد اليوم».

- «مَنْ إذن ؟؟».

- «إلى الله».

وأيام الشقاء المشترك ليس هناك أقوى منها فى ربط قلوب الغرباء والمطاردين، والمصائب يجمعن المصابين، لذا زرت حسان فى بيته وزارنى، والتقى أبناؤه بأبنائى، وزوجته بزوجتى، وانصرف كلية- والحق يقال- عن النفاق والانحناءات وكلمات الإطراء للمدير الجديد، لم نعد نراه يهرول ليفتح له الباب، أو يسرع ليحمل

إليه المعطف، أو ينفض عن كمة غبارًا أو زغبًا علق به، رأينا حسان وقورًا معتزًا بكبريائه، رافعًا رأسه إلى السماء، معتمدًا على الله، بعد أن خاض تجربة الخوف والتقدير العنيف، لقد خلقته الهزة الجديدة خلقًا جديدًا. . أصبح- والحق يقال- رجلاً لا يتشابه مع حسان القديم فى قيمه وسلوكه لقد ترك الخمر. . وواظب على الصلاة. . ودهش كل مَنْ فى الشركة لأمر جديد آخر، لقد وقع خلاف بين «حسان» والمدير، اصطدام المدير وسكرتيره وهذا لا يمكن أن يكون حادثًا سهلاً عابرًا، وبالطبع سوف تنجلى المعركة عن سحق كامل للسكرتير، لكن شيئًا من هذا لم يحصل، لقد احتدم النقاش بينهما، وسمع مَنْ بالشركة صوت حسان وهو يقول فى ثقة وقوة غير مألوفة:

- «أنا لا أخاف منك. . رزقى ورزقك على الله. . أنت مدير. . وأنا سكرتير أو خفير. . لكن كلنا لآدم وآدم من تراب. . إننى لم أخطئ. . لم أفعل إلا ما يميله على واجبى وضميرى وخبرتى الطويلة».

وضرب الموظفون كاف بكف، ثم حملقوا داهشين حينما رأوا المدير يبتسم، ويقبل نحو حسان فى بشاشة ويقول له:

- «أنا فخور بك يا حسان. . أنت رجل مؤمن. . ذو كرامة. . إن الفيصل بيننا هو الحق. . إننى أكره أولئك الموظفين الذين يؤيدون رأيى

لأنى المدير . . وقد يكون رأيى خاطئًا . . إننى أعتز بزمالتك وصداقتك . . لكن حذار أن ترفع صوتك هكذا مرة أخرى . . يجب أن تتناقش بهدوء كأخوة أصفياء».

طأطأ حسان رأسه قائلاً : «آسف» .

الطريق المرصوف اللامع بين دبى والشارقة يمتد هادئًا لا صخب فيه ولا أضواء ، فالساعة قد قاربت الثالثة بعد منتصف الليل ، وأضواء المطار والمدينة لم تزل تتوهج فى قلب الصمت والظلام . . ونادرًا ما تمر سيارة صغيرة ، أغلب السيارات هى من النوع الكبير الذى يحمل الخضراوات والفواكه أو العمال . . لكن حسان ينطلق بسيارته الصغيرة وإلى جواره صديق قديم ، وفى المقعد الخلفى أولاد حسان وزوجته .

ثم حدث الصدام المروع بعد الفندق بمسافة قصيرة ، صدام لم يكن له ما يبرره على ما يبدو ، ولم يكن واضحًا لأول وهلة لماذا انحرف «حسان» إلى اليسار واصطدام بالسيارة الضخمة . .

كنت أشعر بمرارة قاتلة وحزن بالغ وأنا أسرع إلى المستشفى . . أيمكن أن يموت حسان هكذا بسرعة؟؟ والأفواه الجائعة؟؟ والحياة الجديدة التى اختطها لنفسه؟؟؟ يا إلهى ما هذا الذى يجرى فى هذه الدنيا؟؟ .

●●●

كاد قلبي يتوقف وأنا أسمع نتيجة الكشف الطبى على الجثة، وأسمع زوجة حسان وهى تتكلم:

- «أجل كان زوجى يسكر كل ليلة.. والغريب أنه يذهب إلى بيت المدير عند الفجر ليذهبا إلى الصلاة.. مع المدير يحمل المسبحة والسجادة والمصحف.. وفى البيت يقذف بنفسه فى السهرات الحمراء. وكان سامحه الله يقول.. أعط ما لقيصر لقيصر.. وما لله لله.. ما للمدير للمدير.. وما لحسان لحسان.. لم يخطئ السائق الآخر يا سيدى المحقق.. وإنما المخطئ زوجى.. فقد كان سكرانًا..».

وجففت زوجة حسان دموعها وقالت:

- «كان معتدًا برأيه وذكائه.. لم يكن ينافق.. كان يريد أن يصل إلى هدفه بأيسر وأضمن سبيل.. ولم يكن يهمه أن تكون الوسيلة مقبولة أو مرفوضة.. آه.. لقد مات وفى جيبه زجاجة وسكى وفى الجيب الآخر مصحف صغير.. مات غريبًا..».

ثم عادت للبكاء من جديد.

●●●

ساحل الذهب

جلسا صامتين، الحيرة تلقى ظلالها المائجة فى العيون الحزينة، وتبذر التوتر على صفحات الوجهين الأسمرين، وتمتم «شندرا سنج».

- «الجوعى لا يستطيعون الاستمتاع بروعة الحب».

هزت «روفينا» رأسها موافقة، بينما استطرد سنج:

- «إننا نقف عاجزين».

فهمست وقلبها يخفق بالأسى:

- «وماذا نفعل؟».

- «نتمرد ونسحق أى شيء.».

قالت: ليس فى «ولاية كيرالا شيء يمكن سحقه، العراة.. والمرضى.. والموتى يزحمون الطرقات، أتريد أن تسحق هؤلاء؟؟».

كانت تدرك أنه يعرض بالنظام، ويسخط على القدر المكتوب، وكان هو الآخر يدرك أن السلطة ليست الخطأ الوحيد فى الولاية،

فالظروف التعيسة، والطبيعة القاسية كلها قد تآزرت لصنع شقاء الإنسان فى هذه الولاية الهندية.

وهمس: «لقد قررت أن أرحل بعيداً..».

أمسكت «روفينا» بساعده النحيل وقالت: «إلى أين؟».

شرد إلى بعيد وتمتم: «إلى شاطئ الذهب الأسود.. هناك يحصل العامل البسيط على أجر يفوق أجر الطبيب فى بلادنا، وهناك عمل لكل عاطل، الحر شديد حقًا، والأرض صحراء قاحلة.. لكن المال موجود..».

وبرغم الخوف الغامض الذى اجتاح قلبها، والدموع التى اكتحلت بها عيناها الجميلتان إلا أنها قالت فى صوت خفيض:

- «ذلك هو الأمل الوحيد».

وهامت نظرات سنج فى الأفق الشاسع المغبر، لكأنما شدت عيناه برؤيا غامضة تسبح فى العالم الذى يحلم به صوت الغرب، حيث يتبدى الأصيل نجوى حزينة، وأغنية دامعة، ووشاحًا أصفر..

-«وأين ساحل الذهب ذاك؟؟».

رد «سنج» قائلاً: «فى إمارات الخليج العربى.. لسوف أبحث عن سفينة مبحرة، وأعبر الأمواج إلى «إمارة الشارقة» أو «دبى» أو

«رأس الخيمة». . فى هذه البلاد يا روفينا . . كنوز لا تنفذ . . الطباخ هناك ينال أكثر من ثلثمائة روبية فى الشهر . . والتجارة رائجة . . ومخزن البترول يبشر بخير كبير . . أينما توجد فرص العمل يا حبيبتى توجد الفضيلة . . والأمل . . والحياة الممتعة . . لكن المشكلة هى أجر السفينة . . » .

لم تفكر «روفينا» فى يوم من الأيام أن تتخلى عن قرطها الذهبى ، حتى فى أيام القحط السوداء كانت تتشبث به ، وهى مثل قريباتها يقدسن الذهب ، لكن سنج سيسافر ، ولا بد أن يسافر ، فالذهب لا يبعث الدفء فى قلبها ، كلمات حبيبها أروع من ذهب الدنيا بأسره ، وأخيراً مدت يدها إلى القرط ، ثم وضعته أمامه :

- «لن أنسى هذه اللحظة يا روفينا» .

- «إننى أشعر بسعادة لا مثيل لها . . » .

●●●

كانت السفينة غاصة بالمسافرين ، والبحر هادر صاخب مخيف ، وتمتم سنج بينه وبين نفسه وكأنه يناجى حبيبته :

«آه . . البحر واسع يا حبيبتى . . ووجهه مسمئز متهور . . ينضح بالغضب . . إنه ووجه الزمان شىء واحد . . الله وحده هو القادر على حمايتى . . وأنا أخاف البحر من قديم . . أخافه وهو

ساكن هادئ كملمس الثعبان . . وأخافه وهو هادر غاضب ؛ لأنه في تلك اللحظات لا يعرف الرحمة . . والشمس يا حبيبتي تصب أشعتها كالجمر على الرؤوس ، ورائحة العرق والدخان والشواء تثير الغثيان ، وثرثرة المسافرين لا تنتهى ، بل تتجمع وتصنع ضجة تصدع الرأس ، والزحام يرغمنا على التلاصق ، ويبعث الضيق فى النفوس ، وظاهرة غريبة أخرى . . كل مسافر يضع يده على جيبه . . لا يثق أحد بأحد . . عالم غريب . . كل النظرات محملة بالشك والخوف . . والأيام والليالى تمر تباعًا . . والتوتر يجتاح جسدى كله يا حبيبتى . . إننى راغب فى النوم لكنى لا أستطيع أن أستغرق فيه كما كنت أفعل فى أرضنا . . أرض الجوع . . والجفاف . . والعراة . . اللحظات التى أغفو فيها ممتلئة بالأشباح والرؤى المخيفة ، صارخة بالقلق والعذاب . . إنه الجحيم بعينه . . يخيل إلىّ حبيبتى أن جهنم سيكون عذابها من ذلك النوع النفسى البشع . . ذلك الذى يحرق ولا يميت . . آه . . انظرى يا روفينا . . آه . . إنها معركة قاسية تنشب الآن بالسكاكين والخناجر من أجل حادث سرقة . . يالكارثة . . الدماء تسيل . . والصياح يختلط بالصرخات . . والمركب يهتز مع الصدام العنيف . . إنه لشىء رهيب . . قلبى يدق فى عنف . . إننى أسمع أحد رفاق السفر يصيح : «أصابت السكين الفتى . . لقد مات . . » .

أرتجف جسدى كله يا حبيبتى . . وساد السفينة وجوم من نوع غريب . . لا أكاد أسمع إلا الأنفاس اللاهثة، والصدور تعلو وتهبط، وعلى الوجوه مسحة يأس وكآبة . . ما لى وهذه الغابة، وما فيها من وحوش كاسرة، ابتسامتك الهادئة يا روفينا فى ظلال الأشجار الجرداء، ومع العجوع والجدب لا توزن بطن من الذهب . . آه . . لقد مات الرجل . . لا أعرف اسمه . . ماتت أمنيات وآمال كبيرة فى الحب والثراء والسعادة . . سحقته يد شيطان . . ووجدت الدموع يا «روفينا» تتخذ لها مسارًا فوق خدى . . كنت أبكى على نفسى، تخيلت أننى القتيل . . وأنك . . آه . . يا لهول المشهد!!! وصرخت بأعلى صوت، حتى سمعنى كل مَنْ بالسفينة .

- «العقاب . . » .

لكن ربان السفينة رد بصوت غليظ كالقضاء النافذ :

- «ليلزم كل واحد منكم مكانه، وإلا مالت السفينة وغرقنا جميعًا . . لقد مات وانتهى الأمر . . » .

«لقد سرق . . العدل هو ما أراه أنا . . أتفهمون؟؟» .

ورأيتهم يا روفينا يجردون القتيل من ثيابه . . ويلقون به فى عرض البحر . . فيبتلعه فى هدوء، ثم تنسحب الأمواج فى تتابعها الأزلى الساحرة، وكأنه لم يحدث شىء، فصرخت دون وعى :

- «لا . . .» .

ورأيته يا روفينا قادمًا نحوى ، إنه الربان المتهجم الغليظ القلب . . كانت عيناه تتقدان شررًا ، ولحيته المشعثة التى تختلط فيها الشعرات البيضاء والسوداء تقطر وحشية ورعبًا . . ووقف أمامى وقد كور قبضته وزم شفتيه ، ثم ركلنى بعنف فى صدرى وهدر :

- «كلمة أخرى تصدر منك ، سأقذف بك وراءه» .

فكرت كثيرًا وإن لم يشغل التفكير سوى حيز ضيق جدًا من الزمن ، أن أنقض عليه بخنجرى؟؟ لكنى برغم هذا الحشد الكبير وحيد . . كل إنسان على ظهر السفينة يعيش فى غربة . . وعزلة . . وشك . . وخوف . . وينظر إلى الآخرين نظرة التوجس . . عالم بلا ثقة ، بلا حب . . آه . . إننى أتخيلك الآن أمامى . . وأتكلم معك . . أحيانًا تنفرج شفتاى وأهتف باسمك ، أو أنطق بعض الكلمات بصوت مسموع والرجال من حولى يظنون أننى مجنون .

وبعد أيام هبت عاصفة عاتبة . .

وأخذت السفينة تميل يمنة ويسرة ، ونحن نتخبط ونصرخ ، الرؤوس تتصادم ، والأيدى تتشبث بأى شىء ، والربان يصيح من وقت لآخر : «اثبتوا فى أماكنكم . . إن من يثير أية حركة سوف أقذف به فى عرض البحر . . أيتها الكلاب النجسة» .

ولأول مرة منذ ركوبنا، أرى نوعًا من التعاطف والمشاركة فى عيون التعساء. . الركب الحزين يخاف الموت مثلى. . ورأيتهم يصلون. . مسلم يرفع يديه وعينيه إلى السماء. . وهندوكى يضم راحيته ويتمتم. . ومسيحى يتشبث بصليب ذهبى، يخفيه تحت قميصه. . وطفل يبكى فى رعب أكان هو الآخر يصلى بلغته؟ ساعة أو بعض ساعة ونحن كالدمية بين الماء والسماء. . وطيور الموت تحلق فوقنا. . وأقبل الليل يملأ أذنى أزيز مبهم كأنه همهمات الشياطين. .

وصاح الربان: «الحمولة أزيد من اللازم». . لم أفهم فى البداية قصده.

لكنى سمعت أنينًا وعويلاً. . لماذا لم يفكر فى الحمولة الثقيلة من قبل؟؟.

لم أكترث، لكن رجلاً مسنًا همس فى أذنى:

- «الربان يريد أن يخفف العبء عن السفينة». . كيف؟؟ يا للهول!! يقذف ببعض المسافرين إلى الأسماك. . هذا حيوان. . وحش. . ثم ساد الصمت، وركع الرجل العجوز، ولثم يد الربان قائلاً:

- «اترك الأمر لله يا ولدى، إما أن ننجو معًا، أو نسكت».

بينما صاح الربان: «أو نموت معًا. . هه. . هذا منطق الخوف والجنون. . إن كثيرين يموتون ليحيا الآخرون. . تلك هى الحياة. .

أنتم تسمونها قسوة. . وأنا أسميها ضرورة. . تضحية. . حسن تصرف. . أنا المسؤول هنا، وأعرف ما يضركم وما ينفعكم أيها الحمقى. . هكذا قال. . والربان يا حبيبتى حاكم مطلق. . لا يحميه سوى بضعة نفر مدربين مسلحين. . ونحن نخاف الربان ونطيعه لأنه يعرف أسرار الطريق، ولأننا بدونه نضيع فى هذا العالم المائى الذى يبدو وكأنه بلا نهاية. . نحن مضطرون لحمايته وطاعته والخضوع لجبروته. . لأنه وسيلتنا إلى الحياة والأمل. . وبلوغ مرفأ النجاة. . لكن الله ستر. . لقد هدأت الأمواج، وسكنت الريح. . وعادت السفينة تنزلق على صفحة الماء وادعة آمنة، وارتسمت الابتسامات على الشفاء، لقد نجونا دون خسائر. . وسمعت فتى ينشد أغنية شجية بصوت جميل. . وأخرج أحدهم «كمان» أخذ يداعب أوتاره، واندفعت فتاة سمراء فى الخامسة عشرة، وأخذت ترقص وتغنى أغنية هندية عذبة. . والغريب أن الربان ذا الشارب الطويل، واللحية الكثة، أخذ هو الآخر يشارك فى الطرب ويصفق بيديه مرحًا، وعيناه تفيضان سعادة وحبًا. . وعادت رائحة البحر والشواء والدخان والعرق تزكم الأنوف. . عندما تنفرج الأزمة يشعر الإنسان بسعادة غريبة. . اللحظات العادية. . بل المملة تتحول إلى بهجة. . الغابة الصغيرة بوحوشها بدت من جديد على صورة أيكة نضرة تمرح فيها الحياة الدافقة.

●●●

وأشرق فجر أحد الليالى، وقد اقتربنا من هدفنا، وانداح فى الصمت أنين متقطع، وسمعنا رجلاً يقول:

- «لم أكن أريد قتله، لقد سرق الروبيات التى أمتلكها، ولما حاولت استرجاعها اعتدى علىّ، وهمّ بقتلى، دافعت عن نفسى بالسلاح نفسه.. أنا لم أقتل أحدًا فى حياتى.. لكنه مات.. أى شيطان دفعنى إلى تلك الحماقة؟؟».

وهدر إلى جواره صوت لم أتبين مصدره فى عتمه الفجر: «لن يذهب دمه هدرًا، لم يزل أمامنا وقت لتسوية الحساب».

وقهقة الربان فى سخرية: «حسابى هو الأهم».

وأخيرًا أبطأت بنا السفينة وقال البران: «استمعوا إلىّ جيدًا.. سنقضى اليوم كله هنا.. لن نستطيع أن ننزل إلى الشاطئ إلا تحت ستار الظلمة.. النور فضّاح.. والشرطة تجوب السواحل..».

واستراح الجميع لهذا المنطق السليم، وفى المساء يا حبيبتى هرولت السفينة صوب الشاطئ المأمول، لم تستطع أن تصل إلى الأرض لضحالة الماء فى الخليج قرب الشاطئ.. وحمل كل واحد متاعه، وأخذ قارب صغير ينقلنا إلى قرب الشاطئ.. كنت أخوض المياه، ونداؤك الحلو يا «روفينا» يطن فى أذنى، فيمدنى بطاقة هائلة.

وبلغت الشاطئ.

وعلمت فيما بعد أن بضعة نفر قد غرقوا، ولم يبلغوا شاطئ الأحلام.. وسرت شائعة تقول إن «القاتل» قد لقى مصرعة بعد أيام.

المهم يا حبيبتى.. أننى لم أجد أكداس الذهب تبرق فى وهج الحر اللافح، ولم أعثر على عمل إلا بعد مرور شهرين، قاسيت خلالهما ما قاسيت من عناء وعذاب.. لكنى وجدت رجالاً يعملون.. يصارعون قسوة الطبيعة، ويكسرون حدة الحر البشع بإصراهم ونضالهم.. وجدتهم يقهرون الضعف واليأس والخوف، ويخرجون من المعمعة الرهيبة بعزيمة كالحديد.. وبالذهب أيضًا.

وقد انضممت إليهم.. إننى أعمل وأكسب، وأجفف عرقى فى سعادة ووجهك الحلو يشع أمامى صفاء وثقة وحبًا.. وسأبعث إليك بعد خمسة أشهر بتذكرة طائرة لتلحقى بى.. فلا أريدك أن تركبى فى غابة للوحوش تتحرك على سطح البحر الذى لا يرحم.

روفينا.. إليك قبلاتى.. وإلى اللقاء.



الجبابرة

كل شىء من حولها يوحى بالسعادة والرضى، الحجرة الصغيرة تبدو كعش جميل، وضجة الأطفال فى باحة البيت الواسعة لا تبعث فيها ضيقًا أو مللاً، إنهم مثل عصافير الجنة إذ يضحكون ويمرحون، وأغانى المذياع فى الصباح تملأ قلبها بالنشوة والأمل، بل يخيل إليها أن هذه الأغانى كأنما اختيرت من أجلها وحدها، ولم تحاول «سهام» أن تتساءل عن سر هذا التغير الذى شمل حياتها، وأحال ضجرها إلى سعادة، ومللها إلى أنس ودعة، إنها تتشرب تلك الفرحة الغامرة فى استمتاع ونشوة. . ومع ذلك فهى تريد أن تتكلم. . وتريد أن يشاركها أى إنسان أفراحها. . لكنها تخجل أن تثرثر مع أبيها فهو وقور، وهى تحترمه وترهبه فى الوقت نفسه، ولا يستطيع أن تفتح قلبها لأمها لأنها جادة وصارمة أكثر من اللازم، وأخوها عبد الرحمن متكبر أنانى مدلل، لا ينظر إليها كأخت. . بل كخادمة. . ولا يقل تشددًا عن والديه فى معاملتها. . يغلق المذياع إذا رآها تستمع لأغنية عاطفية، ويضربها إذا رآها تسترق النظر من

النافذة، ويسدد إليها نظرات متوعدة، إذا سمعها تذكر اسم رجل على لسانها . . ومع كل هذا فإن سهام كانت سعيدة منشرحة فى ذلك الصباح . . لم تكن ترى فى تقاليد الأسرة العاتية ما يحزنها . . إن ما يغمر قلبها من حب كبير قد جعلها تغفر للماضى إساءاته . بل وتنظر إلى المتاعب والمآزق القديمة وكأنها مجرد ذكرى جميلة محببة . . إن حبها لفتاها «سلطان بن على» . . قد أحال نظرتها إلى الحياة والناس والأشياء فأصبحت لا ترى إلا كل جميل محبب . . ألفة غريبة للأشياء . . والبشر . . والأحداث . . والماضى . . والحاضر . . وكأنها لم تعان أو تشقى طوال حياتها . . وحينما دخلت الخادمة «رقية»، وكانت فى مثل سنها، وثبت سهام من فوق سريرها، واحتضنتها فى شغف وهى تقول :

- «هل رأيته يا رقية؟؟ إنه إنسان ممتاز» .

رمقتها الخادمة فى خبث وقالت :

- «وهل سيجد مَنْ هى أحسن منك جمالاً ونسبًا؟؟» .

هرولت سهام إلى حقيبة اليد، وأخرجت منها خمسة ريالات، وأعطتها للخادمة وهى تقول :

- « . . وفى يوم الفرح، سأعطيك هدية قيمة يا رقية» .

ابتسمت رقية، وقالت :

- «ما دام الأمر كذلك، فإنى قد قابلته بالأمس».

هتفت سهام:

- «سلطان؟؟».

- «أجل.. رأيته فى سوق السمك..».

أمسكت سهام بذراعها ضارعة، وهتفت:

- «وماذا قال لك؟؟ تكلمى»..

- «يبلغك السلام».

وضعت سهام يديها على قلبها، وشردت بنظراتها إلى بعيد، كانت عيناها تنبضان بالحب والسعادة، وكان وجهها الغض يكتسى بخمار عذب من الخجل والنضارة، وتدلت غدائر شعرها فى استرخاء وفوضى محببة، وتمتمت وكأنها فى حلم:

- «ولكن متى سيأتى؟؟».

همست رقية حتى لا يسمعها أحد خارج الحجرة:

- «لقد فاتح أباه فى الأمر.. أخبرنى بذلك.. ووعد أبوه برؤيتك..».

- «لقد رآنى بالفعل.. وكلمنى.. إن أباه رجل طيب.. الناس دائمًا يكذبون، ويزعمون أن أبا سلطان سيئ المعاملة.. جشع..

لكنها الغيرة هى التى تدفعهم إلى ذلك . . «على» رجل طيب . . كان ينظر إلىّ فى حنان وعطف . . ومنذ تلك اللحظة، وأنا فى فرحة غامرة . . » .

وعادت رقية إلى الهمس، وهى تتلفت يمنة ويسرة :

- «وأعتقد أن «عليًا» سيأتى لخطبتك لسلطان ابنه خلال يومين أو ثلاثة . . هذا ما أخبرنى به سلطان» . .

وكفتا عن الحديث حينما سمعتا وقع أقدام تتجه صوب الحجرة، وشغلت سهام نفسها بترتيب السرير والكراسى والملابس، بينما همت رقية بكنس السجادة، ثم إزاحة الستائر، وزمجرت أمها غاضبة، وكان وجهها دائمًا يبدو مكفهراً سواء فى أوقات السرور أو الأسف، بحيث لا تستطيع سهام أن تدرك ما يعتمل فى رأسها من أفكار . . قالت الأم :

- «ما هذا الكسل؟؟ أتظلين فى سريرك حتى هذا الوقت المتأخر؟؟» .

ثم صوبت الأم سبابها نحو سهام قائلة :

- «أنا لا أتصور كيف تكونين زوجة ناجحة» .

وابتسمت سهام، إن أمها تعرف، ولذا فهى تلمح عن الحدث السعيد القادم، لم تتضايق سهام، بل قالت فى ود :

- «الساعة لم تتجاوز السابعة صباحًا يا أمى» . .

صاحت أمها :

- «غيرك من الفتيات يستيقظن عند الفجر . . » .

هتفت فى حنان :

- «أنا طوع أمرك يا أمى . . » .

فى الحياة أشياء غريبة تبدو غاية فى النشاز والسخرية والظلم ، وإلا فكيف تستطيع «سهام» أن تفسر ما حدث بعد يومين ، لقد وقفت مشدوهة وهى لا تكاد تصدق أذنيها ، لقد أتى «على» فى الميعاد المحدد ، وقدمت الفواكه الطازجة والمشروبات المثلجة والقهوة . . كانت ملامح السعادة ترتسم فى كل جنبات البيت . . وسهام قد اعتكفت فى حجرتها حيا وخجلاً ، وقد بدا خداها متوردين بحمرة عذرية ساحرة ، ومن عينيها ينسكب بريق أخّاذ . . وصورة فتاها تملأ خيالها وروحها وقلبها . . والأمل الحلو يهدهد جسدها . . ورؤى المستقبل الحبيب تبدو كجنة عذراء تفيض بالثمار والزهور والأريج . . أحلى أيام العمر . .

وأتى أبوها وقال :

- «اسمعى يا سهام . . قد أتى على يخطبك لنفسه . . وقد وافقت . . » .

قالت سهام، وقد ماتت الابتسامة على شفتيها، وساد وجهها شحوب مباغت، ودق قلبها فى رعب . . قالت:

- «على أم ابنه سلطان؟!».

ورفع الأب كفًا غليظة وهوى بها على وجه ابنته وهو يهدر:

- «قلت على . . ولقد وافقت . . أتفهمين؟؟ أنا الذى أختار . . أتفهمين؟؟».

وأعطاها ظهره وانصرف.

اسود كل شىء فى وجهها، تحول الوجود إلى مستنقعات . . وأشلاء . . وطيور جارحة . . وغربان سوداء . . وذئاب تعوى . . ومشانق . . وضراعات . . ووجوه كالحة قاسية مكفهرة . . وأياد تمسك بالسياط . . عالم من شقاء . . وفساد . . وانفجرت باكية . .

ربتت رقية على كتفها فى حنان:

- «حكم القدر» . .

أخذت سهام تضرب وسائدها وتنشب فيها أظافرها وتجهش وتقول:

- «لا . . بل ظلم الإنسان . .».

- «إنه قدر أيضًا يا ست سهام» . .

- «جبابرة . . لا يرحمون . . لا يرحمون . . » .

وزفت سهام إلى رجل فوق الخامسة والستين من عمره، وكان الرجل سعيداً غاية السعادة وقال لمن حوله :

- «إن ابنى أمامه سنوات طويلة يستطيع أن يبلغ خلالها ما يريد ، فلا لوم علىّ إذا أسرعت بالاستمتاع بما بقى لى من سنوات قليلة، والابن البار لا يحرم أباه من هذا الحق . . » .

لكن سلطانًا اختفى . . فمن قال إنه ذهب إلى إحدى الإمارات المجاورة . . ومن قال إنه ركب البحر إلى الشاطئ الشرقى للخليج . . وزعم زاعم أنه لقى حتفه فى عرض الصحراء الشاسعة وواراته إحدى القبائل التراب . . .

●●●

العار

أنا عائد من الدنيا البعيدة . . أيام وليال قضيتها فى عرض البحر . . وفى الجزر المعزولة عائد يسبقنى الشوق ، وتعربد فى قلبى لهفة رائعة . . الحرمان يشعل الحب . . والبعاد يؤجج الأشواق . . إنها لحظات حلوة تساوى دهرًا بأكمله . . العمر لا يقاس بالأيام . . بل باللحظات العامرة بالعواطف والحنين والشوق الخالد . . أحب «خورفكان» . . وزوجتى الطيبة «حصة» . . وابنتى «عوشة» .

. . إن لعوشة فى قلبى مكانة كبرى . . هى ابنتى الوحيدة . . فيها رقة وعذوبة وحنان . . من عينيها الطاهرتين يتدفق نبع صفاء . . زوجتها لرفيق العمل «خميس بن محمد» واشترطت أن تظل فى بيتى وهو معها . .

أنا عائد من الدنيا البعيدة أحث الخطى نحو مسكنى ، وإلى جوارى خميس بن محمد . . لكن أتعرف الموت حين يهبط فجأة فيصرع الأفراح ويبدد الأحلام السعيدة؟؟ لا . . لم يكن موتًا وإنما

شيء أبشع من الموت . . كيف حدث ذلك؟؟ لقد قابلني شقيقي حسين، وهو أكبر مني سنًا ولم نكن على وفاق دائم . . كنا نختلف على أشياء كثيرة في حياتنا، هذه هي الحقيقة المرّة . . اقترب مني حسين وقال: أريدك في أمر مهم . . لا يصح أن يسمعنا أحد، قرأت على وجهه التوتر والغضب . . كانت نظراته تلوح بأنباء مزعجة . . انتحيت به جانبًا، وقلت وقلبي يدق من الخوف:

- ماذا جرى؟؟

قال لي في فحيح قاس لا يعرف المجاملة:

- عندما تعود إلى بيتك فستجد العار في انتظارك . . دارت بي الأرض، لم أعد أرى شيئًا، وكدت أسقط إعياء، فأسندت يدي على كتفه، وقلت بصوت واهن:

- زوجتي؟؟

- لا . . إنها ابنتك عوشة . . الجاني لا نعرفه، لكن في بطنها دليل ضخم . . يتكور . . لا يعطيها أدنى فرصة للدفاع . . الأمر واضح لا يحتاج لكثير من الذكاء، رمت عوشة بنفسها في أحضان الخطيئة في غيبة زوجها التي امتدت أكثر من تسعة شهور، آه . . فعلتها الملاك الطاهر التي قضت في المدرسة عامين . . فعلتها . . وتركت الهمسات الآثمة القاتلة تنتقل من بيت لبيت، والضحكات

الساخرة تقذفها أفواه شامتة لا ترحم . . أين أذهب؟؟ كيف أواجه الناس؟؟ وماذا سيقول صهرى خميس؟؟ وأفقت من شرودى على صوت أخى حسين يقول؟ :

- العار يجب أن تواريه التراب قبل أن يشرق الفجر . .

أغمضت عينى ، أخذت أصر على أسنانى ، وكورت قبضتى وأخذت أدق رأسى . . وهمس حسين :

- كنت على وشك أن أنفذ فيها حكم الشرف . . لكنى قلت إنك كأب لها صاحب الحق الأول . .

حياة البحر علمتنى الكثير من الحزم وسرعة التصرف ، الموج والرياح والامتداد الشاسع للماء ، والأفق الكبير . . عالم بلا تعقيد حيث لا تصطدم العين بشىء يوقفها . . وأنا أعرف كيف اتخذ القرارات الحاسمة عدت إلى خميس وقلت له :

- لتبق أنت بالشاطئ حتى أستدعيك . .

دهش خميس ، ماذا جرى؟؟ هو يعلم أن أوامرى لا تقبل المناقشة ، فطأطأ رأسه موافقًا ، والحيرة تمزق كيانه ، والهواجس تلعب بعقله . . كنت أسير كالأعمى ، أقدامى تغوص فى الأشواك والحصى ، وليس فى مخيلتى سوى البطن الكبير المنتفخ . . وكان الليل قد غطى الكون ، فتسلك كلص دون أن يشعر بى أحد من

حسن الحظ أن زوجتى كانت تجلس وحدها ، اتسعت حدقتاها رهبة حينما رأتنى ، قلت :

– أين هى؟

– نائمة . .

قلت وأنا أرتجف : سيتم كل شيء بسرعة ، وسندفن العار إلى الأبد وقبل أن يشرق النهار نكون أنا وأنت خارج البلد . . ولنذهب إلى أى مكان . . وفوجئت من خلفى بصوتها :

– يا أبتى الظلم حرام . . أنا لم أرتكب إثمًا . .

– الأجنة لا تخلق وحدها . . يا عاهرة . .

– خذنى إلى طبيب . .

ضحكت فى مرارة حتى ننشر عارنا فى كل مكان؟

لكنى فى الحقيقة شعرت براحة غريبة مفاجئة ، معنى ذلك أن ابنتى تصر على براءتها كنت كالغريق الذى يتشبث بقشة تلوح له وهو يهوى إلى الأعماق ، لكن ألا يجوز أن البنت تدبر حيلة للفرار؟؟ وقالت زوجتى فى ضراعة والدموع تغرق عيونها وأهدابها :

– لِمَ لا نعطيها فرصتها؟؟

وتحت ستار الليل الأسود الرهيب انطلقنا قاصدين دبى إلى المستشفى الكويتى، ومن آن لآخر أنظر إلى بطنها المتكور تحت العباءة السوداء، وأحزان الدنيا كلها تغلق موكبنا الكئيب . . تمنيت ألا يطلع النهار دخلنا المستشفى بعيون ذابلة أضناها السهر والعذاب والقلق . . وأصررت على أن تفحص الطبيبة ابنتى وأنا إلى جوارها، وبعد توجيه عدد من الأسئلة من الطبيبة، ودقائق من الفحص، قالت الطبيبة فى هدوء:

- كيس على المبيض يحتاج لعملية جراحية . . أتوافقون؟؟

حينما عدت إلى خورفكان، كنت أحمل الورم الذى استأصلته الطبيبة وكأنى أحمل أثمن كنوز الدنيا . . وهرول الجيران من كل صوب ليشهدوا الأعجوبة، وبعض الرجال يهمسون فى أذنى مبروك، ومع ذلك فقد وقف أخى حسين مكفهر الوجه خجلاً وأخذ يتمتم: لما هذه الضجة كلها؟؟ قلت وأنا فى قمة السعادة:

- العلم نور يا حسين . . هذه القطعة اللحمية . . قد أنقذت عالمنا الصغير من الدمار . . وملت على صهرى خميس قائلاً:

- زوجتك تريد أن تراك . .

نسيت أن أسرد حادثًا قديمًا، وهو أن ابنتى عوشة كانت قد رفضت الزواج من ابن عمها حسين، وأنا كنت فى صفها . .

●●●

ليلة الزفاف

أنا أكرهه . . أكرهه من كل قلبى . . وأنا صغيرة . . وحلوة . . وأمقت النفاق والكذب ، وأكاد أجن حينما أرى إنسانًا- أو حتى حيوانًا- يقع تحت وطأة أى نوع من الظلم ، الظلم أكبر الجرائم ، ومدرسة لتخريج كل أنواع الرذائل ، ومعمل تفريخ لشتى ألوان الفساد . . هو فى السبعين من عمره ، وأنا فى السابعة عشرة . . اذكروا ذلك جيدًا . . تصوروا كيف تمتد أذرع الشتاء الجرداء العجفاء ، لتضم إلى الصدر الواهن المكروب ، حيوية الربيع وافتتانه وروعته . . هو زوجى . .

كلما تطلعت إلى عينيه ، تذكرت العملة المعدنية الملساء الزائفة ، وانبعثت فى قلبى أنغام لحن جنائزى قديم سمعته فى أحد الأفلام السينمائية ، تجاعيد وجهه تذكرنى بالمثل الشائع (أرض عمان كلها دروب) ، غير أن دروب وجهه لا تقودنى إلا التيه والضياع . وعالم الجدب والأحزان . . مثله لم يكن يحتاج لزوجه فى ريعان الشباب ، وإنما يحتاج إلى ممرضة مدربة ، لتدلك له ظهره المنحنى ، وساقيه

الضامرتين المريضتين ولتسقيه الدواء فى المواعيد التى يحددها الطبيب . . لكن للأسف . . الناس هنا لا يفرقون بين وظائف الأنثى . . كزوجة . . أو خادمة . . أو ممرضة . . الأنثى تستعمل فى أى شىء . . يا للعار ! ! لا أنسى ما حييت يوم الزفاف . . جاءنى يعرج . . ويلهث . . ويسعل . . ولوّح بيده المرتعشة ، ورأسه هى الأخرى كانت ترتعش ، وقال : (اقتربى منى يا نورة كى أقبلك) خطوت إليه ، وكأنى أساق إلى (وادى الأخدود) الذى قرأت عنه فى الكتب ، لامست لحيته البيضاء بشرة وجهى البضة الناعمة . . هل أكذب عليكم؟؟ لا . . الحقيقة أننى شعرت باشمئزاز بالغ ، أثار فى نفسي الغثيان ، كدت أدفعه بيدى فى غيظ ، لكنى تمالكت أعصابى ، وغبت عن الوجود فى رحلة إلى عالم النسيان الأسود المخيف كنت فريسة كابوس مرهق محطم للأعصاب . . يا إلهى ! ! لمَ هذا العناء كله؟؟ لم أشعر بقبلته ولا بذراعيه كانا كالأفعى تَطوقنى . . لكأنما تثلجت أطرافى ، أو أصيبت بشكل مباغت . . ثم ماذا؟؟ جلسنا نتناول الطعام كان ضعيف البصر لدرجة كبيرة . . وأخذ يتحسس الأطباق ليعرف ما أمامه من مأكولات . . وأخذ يثرثر . . قال لى الطبيب . . إن عندى ماء أبيض على عدسة العين ، وإننى أحتاج إلى جراحة . . الأطباء يهولون دائمًا . . الشافى هو الله يا (نورة) . . صحتى قوية كالحصان . . لم أمرض أبدًا . . رحم الله أيام زمان . . كنت فارسًا لا يشق له غبار . . حاربت . . وقتلت .

وتزوجت كثيراً . . الناس تعرف من أنا ، كنت أبث الرعب فى قلوب الجميع . . بل كنت الرعب نفسه . . كنت أقتنص النساء والأطفال . . وأبيعهم فى سوق العبيد خارج البلاد ، تعلمت الغوص ، وتاجرت فى اللؤلؤ . . كانوا فى البر يسموننى (صقر الصحراء) . وفى البحر (قاهر الأمواج) أنت يا نورة لا تعرفين من أنا . . من حسن حظك أن تكونى زوجة لى ، بل ويشرفك أن تقفى على أعتابى ، وتسهرى على راحتى سمعت عن جمالك وأدبك ، فقررت الزواج منك . . ألست سعيدة؟؟

آه . . نظرت إلى جذع النخلة المتآكل ، وإلى جذوره الذابلة . . وعلامات الفناء تدب فى كل أوصاله ، وشعرت بموجة عاتية من الكراهية ، لو لم أكن زوجته لما استبدت بى هذه الكراهية ، إن الشيخوخة جديرة بالعطف والاحترام وتستدر العون ، لكن الشيخوخة الظالمة الحمقاء الأنانية ، تملأنى بالنفور . . وصحت فى حقد مكبوت :

- (لماذا تزوجتنى وأنا فى سن حفيدتك؟؟) .

قال ببرود قاتل :

- (لأنى أريد ذلك) .

- (لكنى لا أريده) .

قال وهو ينهش فخذ خروف صغير :

- (لا يهم . .) .

نظرت إلى طاقم الأسنان الصناعى وهو ينهش اللحم ، فخيل إلى أنه لحم امرأة ضحية خطفها فى الزمن الغابر ، وبدا لى أن الدماء تسيل على أشداقه ، وتخصبت لحيته البيضاء ، وتلويث أصابعه المرتجفة وبدا لى شاربه ينتفض وكأنما تحول إلى حراب فضية رفيعة . . وتضاءل وجهه ، وبدا مثلثًا ، تنتصب عليه أذنا وحش مفترس ، بل وبدا لى أيضًا أنه يعوى كوحش ضار أصابه داء الكلب ، فجن جنونه فصرخت بأعلى صوتى طالبه النجدة . . ثم ارتميت على بساط الحجرة ، ولم أفق إلا على جمهرة من النسوة ، يصبون الماء على وجهى ، ويدلكون أطرافى وصدرى ، ونظرت حولى ، رأيته جالسًا لم يتحرك ، وفخذ الشاه فى يمينه ، يمضغ الطعام بهدوء وروية . . وضحكت النسوة . . وقالت إحداهن : وأظنها زوجته الثالثة : (ماذا يزعجك يا عزيزتى ؟ ؟ لا تقلقى ، سرعان ما يذهب الفزع ، ويحل محله الهدوء والاستسلام ، لا شك أنه حدثك عن بطولاته القديمة إنه يمزح بلا شك . .) .

أما هو فقد حاول أن يضحك ، لكن السعال سبقه ، بحيث لم أعد أعرف هل يقهقه مسرورًا ، أو يسعل مأزومًا ، وخرجت النسوة ، وعاد الصمت من جديد ، وقال :

- (ألا تأكلين؟؟).

ولمّا لم أجب بكلمة، تمتم:

- (تصرفاتك هذه لا تحرك فيّ شعرة واحدة.. أنا أعرف النساء جيدًا.. ذات مرة.. وكان ذلك منذ ثلاثين عامًا لم أرتح لتصرفات إحدى زوجاتى.. قتلتها على الفور..).

هتفت فى ذعر:

- (قتلتها؟؟).

- (أجل.. وماذا فى ذلك.. المرأة الفاجرة لا تستحق سوى ذلك؟؟).

قلت فى تحد:

- (والرجل الفاجر، ماذا يستحق؟؟).

ضحك ضحكة سمجة تبعث على الضيق والاشمئزاز وقال:

- (إنه رجل..).

- (ألم يحاسبك أحد على ما فعلت؟؟).

تجشأ، ثم شرب قدحًا من الماء، وتمتم:

- (ما زلت صغيرة يا نورة.. وسأعلمك الكثير).

كانت هناك أشياء كثيرة أردت أن أقولها له ، لم أمسك لسانى خوفًا منه ، فقد بدا لى تافهًا لا وزن له ، وحتى لو استطاع أن يقتلنى لما شعرت بأدنى ندم على حياتى ، إن حياة فى ظل هذا المخلوق هى الموت بعينه ، قلت وأنا أصر على أسنانى :

- (أنا أكره الظلم) .

- (أنت ساذجة . . الظلم صناعة الأقوياء . . ثم ما هو الظلم؟؟ كل ما يُطلَب منك دون أن يوافق هواك فهو ظلم ، لكنه فى نظر الآخر ضرورة وعدل . .) .

ومسح على لحيته البيضاء ، وشاربه الكث ، ثم استطرد :

- (لست غبيًا . . أنت تعتقدين أن زواجك منى ظلم . . وأنا أعتقد أنه حق مشروع . .) .

قلت فى نفور :

- (تحدث عن أى شىء إلا الحق . .) .

لشد ما أكره كلماته ، ونبرات صوته ، وملامح وجهه وأشعر أن بينى وبينه عصورًا سحيقة ، إنسان من عصر الغابة يتكلم ، يخاطب مجتمعًا آخر ، وله منطق مضحك ومحنق ، ويريد أن يفرض سلطانه وقيمه على امتداد الدهر ، متحديًا بذلك سنن الكون والحياة . . متحديًا الله . . وكل المثل الرفيعة . . فلماذا لا أسخر

منه؟؟ هذا السلاح وحده - برغم تفاهته- قد يقلم أظافرها، ويرده إلى الصواب.. قلت وأنا أضحك فى خلاعة مصطنعة:

- (لم يعد هنا أسواق للعبيد).

وهمَّ بالكلام لكنى قاطعته:

- (ولن تستطيع اليوم أن تخطف عنزة..).

ارتجف شاربه، وأراد أن يرد، لكنى لم أعطه فرصة واستطردت:

- (لو فكرت فى قتل زوجة لك لساقوك إلى المشنقة).

وأخذت أقهقه فى هستيرية، وهو يجاهد ليحقق فى تعبيرات وجهى، وصرخ كأسد جريح:

- (زعموا أنك مؤدبة..).

- (إننى لكذلك، لكنى أحتقر الزيف، وأمقت الظلم).

قال وهو يلوح مهددًا:

- (العصا وحدها هى التى ستردك إلى صوابك).

تحامل على نفسه، وبحث عن عصاه المعوجة التى يتكئ عليها، وأخيرًا وجدها، وأنا واقفة أرقب المشهد المحزن ضاحكة ساخرة، لكنى رأيته يتقدم نحوى، ويرفع يده المرتعشة بالعصا محاولاً أن ينزل بها على رأسى، ولكنى فى لحظة قصيرة وثبت كقطة صغيرة،

فهوت عصاه على الحائط، وكرر الهجوم عدة مرات، وفى كل مرة كنت أفلت من عصاه وأضحك، لا أدرى لِمَ كنت أفعل ذلك، كنت أتصرف بلا وعى يدفعنى إلى ذلك جنون اليأس، أو حرقة الظلم، لا أدرى بالضبط ماذا كان يعتمل فى داخلى، كنت أريد أن أنفث عن تمردى وغضبى وثورتى، وحقى الضائع بأية وسيلة، فى عالم لا يؤمن بأن المرأة إنسان.. كائن.. له روح وقلب وأشواق قد تكون أقوى وأعنف من التى يمتلكها الرجل..

وأخيراً حصرنى فى ركن من أركان الغرفة، كان على يمينى الصوان ومن خلفى الحائط، وعلى يسارى مرآة التسريحة ومقعدها، ورفع عصاه، ولم أجد وسيلة للدفاع سوى أن أقفز نحوه كى أحمى رأسى. وقزفت بقوة، فارتطمت بصدره وبطنه.. فارتمى على ظهره متلاحق الأنفاس، ولم يستطع النهوض، والعصا ملقاة إلى جانبه كسيف الفارس المهزوم.. وقفت جامدة لحظة.. ثم نظرت إلى وجهه الشاحب، وصدره الذى يعلو ويهبط فى سرعة مخيفة، فصرخت بأعلى صوتى مرة أخرى طالبة النجدة..

وأتى النسوة من جديد، متشحات بالثياب السوداء، ترتسم اللهفة والإشفاق على عيونهن.. زوجاته الثلاثة، واثنتان من بناته وهما أرملتان.. ورجل من أبنائه يبلغ الخمسين، وهتف الابن: (ماذا جرى؟ إنها لفضيحة..).

أشرت بأصبعى نحو أبيه دون أن أتكلم، كانت الدموع تسد حلقى، وتجرى فوق خدى، وأنا لا أكاد أصدق ما يحدث، لا شك أننى فى حلم مخيف . .

وانكب الجميع عليه، وتسللت أنا خارجة من باب الغرفة، وسمعت العجوز، وأنا أندس فى أحضان الظلام البارد الوادع .

- (لا أريد هذه الشيطانة . . اذهبوا بها لأبيها . . هى طالق . . طالق . . طالق . .) .

وجريت كطفلة صغيرة فى الشارع الصغير، حافية القدمين، وأنا لم أزل بثوب الزفاف، لم أشعر الأحجار والأشواك التى تجرح أقرامى، ولا بالذين أصطدم بهم عرضًا فى الطريق، ولا ببعض السيارات الرابضة أمام البيوت . . كنت اتخذ مسارى بالغريزة وكأن لى هدفًا مرسومًا لا أحيد عنه . . وفجأة وجدتنى فى الشارع الكبير الذى تغمره الأضواء، وينبض بالحياة، وأغانى المذياع تتردد فى آفاقه حلوة شجية . . خففت من خطواتى . . وخجلت من ثيابى . . طأطأت رأسى لكنى لم أتوقف . . وكلمات غزل تتناثر على جانبى الطريق . . لكنى كنت أشعر أننى قضيت فى الكهف مائة عام برغم أنها لم تكن سوى ساعات قليلة . .

●●●

الجو بارد

أنا عائدة إليه، تدلف بى السيارة الأنيقة عبر بحار من الظلمة، الليل أبكم وأصم، صورة من القبح والتشويه والركود لامثيل لها، كنت أحب الليل ونسماته الحلوة، وكنت أعشق فيه الموسيقى والشعر والنجوى الحالمة لكن ذلك كله استحال إلى أنين ونواح . . أنا عائدة إليه . . إلى زوجى . . آه . . لسوف يستقبلنى كالعهد به دائمًا عقب كل جولة قائلاً :

- «هيه . . سبع . . ولا ضبع» .

يريد دائمًا أن يعرف هل نجحت، أم عدت أجرجر أذيال الفشل والخيبة؟ لا أذكر مرة واحدة أنه سألنى عن حالتى، أو حمدًا لله على سلامتى . . حتى ولو من باب المجاملات العابرة التى لا معنى لها . . إنه جاف صريح . . هو يسمى ذلك صراحة، وإن كانت أبشع ألوان الوقاحة، ودائمًا يزهو ويتباهى بأنه واقعى، يعرف حقيقة الأمور، ويدرك أبعادها، ويقصد هدفه دون مواربة .

أنا عائدة إليه هذه المرة بلا ابتسامات، الدموع تفيض فى داخلى وتفور، حتى تكاد تحبس أنفاسى، وتحطم ضلوعى، بداخلى طوفان من الدموع.

وفتح السائق باب السيارة عندما بلغت باب الفندق، نزلت وهرولت إلى الداخل دون كلمة شكر للسائق، ودون أن ألقى تحية المساء على الخادم الذى فتح لى الباب، ولم أقصد المصعد، بل هرولت إلى الدرج، كنت أصعد فى انفعال واضح، وثورة مكبوتة، وحينما دخلت حجرتى فى فندق «كارلتون»، وجدت زوجى جالسًا فى انتظارى، وسرعان ما هب واقفًا، وأخذ يفرك يديه فى قلق ظاهر:

- «سبع ولا ضبع».

خلعت قفازى الأسود، وقذفت به على الطاولة دون أن أتكلم.. وكان على الطاولة بضع مجلات خليعة، وصحف يومية من أقطار شتى، ومطفأة بسجائر، وقلم وأوراق، وزجاجة من الويسكى وكأسان.. وبدا عليه الشحوب، وسعل دونما حاجة، وتمتم فى ارتباك:

- «الجو بارد الليلة».

وانتظر أن أقول شيئًا، لم يعد إليه سوى صدى صوته المرتجف، أعرف أن صبره سينفذ سريعًا، أردت أن أعذبه وأتشفى بتوتره وقلقه، لكنه انقض علىّ وجذبنى من يدى فى جفوة:

- «لماذا لا تتكلمين؟! إننى أحترق بنار الانتظار . . هل من السهل أن أبقى ساعات طويلة أتسمع الخطوات وأنت بعيدة عنى؟؟» .

ضحكت فى سخرية وقلت :

- «ليست هذه أول مرة» .

- «لا شك أنك أكثرت من الشراب» .

- «هذه الليلة بالذات لم أذق للخمر طعمًا» .

وقال فى خوف :

- «لماذا؟؟» .

- «هكذا أردت» .

- «إنها بادرة سوء على أية حال» .

جذبت يدى منه ، وارتميت على السرير وأنا ألهث ، وتمتمت :

- «رفض «عبيد» الصفقة» .

صرخ فى رعب :

- كيف؟؟ هذا يعنى ضياعتنا ، إنها أكبر صفقة نجرى وراءها ، الربح فيها لا يقل عن مليون ريال . . مستحيل أن تفلت من أيدينا .

هززت كتفى دون اكتراث وقلت :

- «عبيد رجل حريص . . يحتلف عن غيره من الرجال إنه من ذلك النوع الذى لا تستطيع النساء أن تستولى على فكره أو ماله» .

- «هراء . . كل دراساتى عنه تؤكد غير ذلك» .

ودارت رأسى ، ما أكثر ما قابلت من الرجال الأثرياء ، وما أكثر السيارات التى ركبتها ، لقد رسم لى زوجى الطريق منذ سنوات عدة ، أفهمنى أن العالم تحكمه النساء ، وأن كلمة السر فى دنيا المال والربح هى «المرأة» ، وأن جمالى يفتح الأبواب المغلقة ، وأن المرأة الذكية تستطيع أن تحصل على كل ما تريد دون أن تفرط فى شرفها (ملحوظة : زوجى يعتبر جلوسى مع رجل غريب وحدى أمرًا غير ذى بال ، ويرى اللمسات والكلمات ذات التورية الجنسية ، بل والقبلات أيضًا شيئًا لا يخل بالشرف) . . إن همسات ناعمة ، أو رقصة (بريئة) على أنغام الموسيقى ، وبعض الوعود- مجرد الوعود- تبلغ بالمرأة ما تريد من أهداف وأرباح ، وزوجى دائمًا يقول :

- «فى حياتى العملية أبحث دائمًا عن أقصر طريق وأرخص وسيلة للمواصلات . . المرأة هى أقصر طريق إلى زوجى فيتلقفها بامتنان بالغ ، ويتبع ذلك بقبلة عاشقة طويلة . . وأغرق بعدها فى الجواهر والأزياء الأنيفة ، والسهرات الحمراء . . لا أكاد أفيق إلى نفسى . . غيبوبة دائمة . . وحلم معقد مكتظ بالمشاهد والصور المتداخلة ، لا أكاد أتبين فيه شيئًا محددًا واضحًا . . وذات مساء

ساقونى إلى الشرطة متلبسة بالجريمة . . ليتها كاد الرعب يقتلنى ، ماذا سيقول زوجى؟؟ وكيف أواجه نظراته القاتلة ، لكنّ شيئًا من ذلك لم يحدث لقد أتى ثاثرًا . . ضد مَنْ؟؟ ضد الذين اتهمومى فى شرفى وعفافى ، ورفض التهمة ، وخلع معطفه ووضعه على كتفى فى حنان صادق ، وأبدى تأسفه لهؤلاء الحمقى الذين يلقون التهم جزافًا . . لم أكن أصدق ما يجرى . . نظرت إليه فى دهشة لكنه ابتسم وقال : «لو شهد أهل الأرض كلهم ضدك لما صدقتهم . . أنا أعرفك جيدًا يا حبيبتى . . وليمت هؤلاء الحاقدون كمدًا وغيظًا ، فلن تستطيع قوة فى الوجود أن تفرق بينى وبينك» . . ليلتها احتقرته من كل قلبى . . لكم تمنيت أن ينقض علىّ صفعًا وركلاً ، أو يحاول تمزيقى إربًا إربًا . . تمنيت أن يثور لشرفه وكبريائه ، لكنه أحنى رأسه فى أسف ، واعتذر لى . . وعدنا إلى المسكن الحزين . . لم نعد إليه صامتين ؛ لأنه لم يكف عن الثرثرة والتشدق بكلمات ضخمة- كالشعارات التى نسمعها فى عالم السياسة- عن الشرف وعن أصالتى ومعدنى الطيب ، وعفة أخلاقى ، وكانت هذه الكلمات تنصب فى أذنى كالرصاص ، وتملأنى بالاشمئزاز ، ووجدتنى أقول له ليلتها : «لكنى أخطأت فعلاً يا كمال» فسد فمى بيده ، وأقسم ألا أتكلم كلمة واحدة . .

واقترب زوجى منى، وأخذ يلح :

- «بالله عليك يا «فتحية» . . قولى كيف أفلت منك «عبيد» . . إنه أمر مهم جدًا . . ولا بد من إعادة المحاولة . . » .

قلت وأنا أرمقه بطرف عينى ! .

- «لقد خدعنى . . نال منى كل شىء دون أن أنال منه شيئًا . . لو كنت مكانك لذهبت إليه على الفور وانتقمت لشرفى» .

قال وهو يلوح بيده فى غيظ :

- «ما جئنا هذه البلاد لنقتل . . جئنا للعمل . . أتفهمين؟؟» .

قمت من سريرى، وهو ينظر إلىّ فى استغراب، ثم فتحت حقيبة اليد، واستخرجت العقد الموقع عليه من عبيد، وقلت :

- «خذ . . لقد حاولت أن أعاتبك . . إن عبيد وافق على كل شىء وإليك العقد» .

اختطف العقد منى كطفل غمره السرور وهو يلتقط لعبة جميلة، ورأيت على وجهه فرحة حقيقة لا يشوبها كدر، أو يظللها شىء من تأنيب الضمير، وأخذ يرقص فى أنحاء الغرفة فى مرح صبيانى، ثم أسرع نحوى واحتضننى بين ذراعيه، وضمنى إليه فى شغف مراهق، وأمطرنى بقبلات، ثم ذهب إلى الطاولة وصب كأسين من الويسكى . . . وهو يدندن بأغنية شائعة لفيروز . . كان صوته نشازًا،

وكانت حركاته تبعث فى نفسى كراهية سوداء، وتمثلت فى خيالى كل الليالى الزائفة بالشؤم والعار والضياع، وبهدوء وإصرار أخرجت المسدس من حقيبة اليد، ثم أفرغته كله فيه. . واستشعرت عندئذ روعة الانتصار الحقيقى. . وفى لحظات كان كمال ملقيًا على السجادة الخضراء، والعقد الذى سقط من يده يعوم فى بركة من الدماء.



الحلم الرائع

كلما نظرت إلى وجهه المستطيل، وعينيه اللتين تومضان بالطيبة الحزينة، تذكرت طفلاً يتيمًا كان يدرج فى قريتنا الصغيرة منذ عشرين عامًا، هكذا كان (وليد) حينما قابلته فى العام الماضى، وهو اليوم كالأمس تمامًا، رجل ذو شارب أسود جميل، وأنف مستقيم شامخ، يظل شموخه مسحة من استسلام وألم دفين، والغريب أن ضحكته كانت تجلجل فى المساء وكان قلبه الطيب لا يحمل همًا، ولا تثقل روحه ذكريات تعسه، لكننى كنت أخاف أن تمتد ضحكته المجلجلة، إذ سرعان ما تمتلئ عيناه بالدموع، ويوشك أن يبكى، إن هناك خيطًا رفيعًا يفصل بين الضحك والبكاء لدى هذا الشباب الذى يذكرنى وجهه بوجه طفل يتيم فى قريتنا النائية.

ووليد يعيش وحيدًا فى بيت ملحق بإحدى مدارس الساحل فى إمارة من إمارات الخليج العربى، ويحاول جاهدًا أن يمتلئ هذا البيت بالأصدقاء فى أوقات الفراغ، وكأنه يخاف أن يجلس

وحيدًا، فالوحدة كما يقول دائمًا: تمتلئ بالأشباح والهواجس المحزنة، والذكريات المرعبة.

وللخريف على شاطئ الخليج نكهة حلوة وخاصة فى المساء، عندما يستدير القمر، وتصفو السماء، وتلامس الوجوه نسمات باردة منعشة.. مرة كنت معه.. وسيارته تقبع عن قرب فى العتمة الضاربة، ولا يشوب الصمت سوى همسات البحر وتكسر الموج لدى الشاطئ المنبسط وفجأة قال وليد:

- (البحر يمتد بلا نهاية.. انظر.. تصور أنك لا تعرف شيئًا عن علم الجغرافيا.. عندئذ تسمو روحك فى عالم غامض.. ساحر.. جذاب لا حدود.. لعنة الله على المعرفة.. إنها تذكرنى دائمًا بأن هذه الأمواج حبيسة.. ولها نهاية..).

وتنهد فى حسرة وقال:

- هكذا كان حبى.. فى البداية عشت فى عالم سحرى لا نهائى من السعادة والنشوة.. ولم يخطر ببالى قط أن هذه المتعة الكبرى يمكن أن تنتهى.. حسنًا.. أنت تريد أن تعرف.. كان حلمًا رائعًا.

وأشعل وليد سجارة، ونفخ دخانها صوب البحر:

- كانت (حميدة) جميلة.. ساذجة.. لم يتعد تعليمها المرحلة المتوسطة.. أتذكرها الآن وهى تثب فى (الترام) بثوبها المدرسى

الأزرق، وابتسامتها . . الحلوة . . يا إلهى . . كنت أتبعها حتى تدخل مدرستها . . ثم أعود إلى مقر عملى كمدرس فى مدرسة قريبة . . ويوم أن استطعت الحصول على إذن من أهلها لكى أعطيها بعض الدروس الخصوصية فى الرياضيات . . غمرتنى سعادة كبرى . . وقضيت فى هذه الأيام أسعد لحظات عمرى . . ثم تزوجنا . .

«لا أكتمك أنها فى البداية سببت لى كثيراً من المتاعب . . فهى تحب الذهاب إلى السينما، ولا تكاد تمر ليلة إلا وتفكر فى زيارة إحدى صديقاتها، وهى تعشق أشياء كثيرة، وتتشبث بها كطفلة عنيدة، وتصر إصراراً جازمًا عليها، فإذا ما استحوذت عليها سرعان ما تزهد فيها، وترمى بها فى خزانة المهملات، فلم يكن غريبًا أن يكون لديها عشرات من قطع الملابس والنظارات والأحذية والقصص العاطفية، وكتالوجات الصور . . وأنواع عديدة من رديوهات الترانزستور، وتوكات الشعر والبروشات، وكانت طفولتها وسذاجتها وصدق عواطفها تشدنى إليها أكثر . . كانت تملأ حياتى وقلبى . . حتى شغبها ومطالبها الكثيرة، وإلحاحها المستمر، لم يكن أى منها يثير ثائرتى، أو يوقظ غضبى . . اعذرنى فإنى كنت أعتقد أن استجابتى لمطالبها لذة أخرى من لذات الحب . . عندما يحب الإنسان حبًا حقيقيًا، فإن كثيراً من الأشياء تتغير مدلولاتها وتفسيراتها . . » .

توقف وليد عن الحديث . . ثم هرول إلى سيارته، وعاد بعد دقائق وفى يديه فنجالين من القهوة الساخنة . . أعطانى واحدًا، ثم أخذ يرتشف قدحه فى هدوء وتفكير . ثم قال ويده ترتجف :

- (ثم حدث شيء . . اعتقلت بسبب رأى سياسى . . لم تكن هذه المرة الأولى . . أجل لكنها كانت المرة الأولى بعد زواجى . . كانت (حميدة) تصرخ وتبكى وتشد شعرها . . وتتشبث بثيابى . . الحقيقة أن الدموع المكتوبة أخرستنى . لكنى استطعت فى النهاية أن أخلص نفسى منها، قبل أن ينتزعونى عنوة وتمتمت فى رعشة : سأعود قريبًا يا حبيبتى . . ولن يعكر صفونا شيء آخر فى المستقبل) .

ومضيت . . لكنى لم أكن أرى أمامى وأنا أسير وسط الشرطة إلا دموعها الغالية، وعشت أيامى وراء الأسوار، وأنا أسطر لها كل ساعة- فى الخيال- رسالة طويلة مليئة بشتى العواطف المتوهجة وأشعار الشوق الملتهب، وفلسفة المحبين . . وكلمات كثيرة عن الوطن . . والواجب المقدس . . وشرف الإنسان . . أقول كانت كلها رسائل يدبجها خيالى، ولم تر الورق قط، حيث لم يصرح بذلك . . ثم عدت بعد عام ونصف . . إننى الآن أقول لك ببساطة . . عام ونصف . . ولو تعلم أن كل لحظة مرت علىّ كانت مشحونة بآلاف الانفعالات والدموع والتمرد الداخلى والحنق . .

لو تعلم ذلك لأدركت أن هذه الفترة كانت دهراً طويلاً خلاصته الجوع والحرمان والتمزق . . وهرولت إليها فى فرح سبيانى :

- (حميدة) حبيبتى . . هأنا أعود إليك . . إننى لا أكاد أصدق . . إلىّ يا أغلى من حياتى . . يا أملى الذى عشت به وله . .) .

وكانت ليلة اللقاء رائعة . . من ليالى العمر الفريدة . . على الرغم من أنها كانت مأخوذة ، تضحك وتبكى ، وتثرثر بلا تحفظ ، وتتصرف تصرفات مضحكة ، وتأتى بالفاكهة ، ثم تتبعها بالطعام ، وصب القهوة التى أعشقها بينما لم أزل أتناول (الشوربة) مع ذلك فقد كنت أشعر بسعادة بالغة . . ما أحلى اللقاء بعد الفراق المرير . . شىء واحد آلمنى ، وحز فى نفسى ، إذ سمعتها بعد أن انتصف الليل وهى ممددة إلى جوارى ويداها تحت رأسها ، سمعتها تقول :

- (أليس من المخجل أن تواجه الناس غداً؟؟) .

قلت فى دهشة :

- (كيف؟؟) .

- (إن دخول السجن لا يشرف أحداً . .) .

قلت فى دهشة :

- (أنا لا أفهم ما ترمين إليه ، إننى لم أقتل أو أسرق . .) .

- (السجن عار . . عار كبير) .

جلست فى سريرى ممتعضًا، قلت :

- «يجب أن تفهى يا عزيزتى أنه شرف . . شرف كبير . . وأنا لم أرتكب جرمًا بالمعنى الصحيح . . كان لى رأى وكتبته) .

أدارت ظهرها، وغمغمت فى تأفف :

- (كل ما أعلمه أنك تركتنى أعانى الخوف والحرمان والأرق . . من أنت حتى تتحدى الطوفان؟؟) .

وهمست وأنا أربت على كتفها :

- (دعى هذا الأمر يا حبيبتى . . فلسوف تدركين الحقيقة فى يوم من الأيام . .) .

وذهلت إذ رأيتها تبكى ويرتفع نحيبها، وتدق رأسها فى هستيرية وتصرخ :

- (لم يقل أحد كلامًا كالذى تقوله . . كانوا يضحكون ويسخرون . . ويظهرون الشماتة والواقحة) .

ثم استدارت نحوى مرة أخرى وقالت :

- (وبعد التجربة المريرة ملت إلى رأيهم . . كان يجب ألا تفكر فى شى سوى عملك وبيتك، وليذهب كل شيء بعد ذلك إلى

الجـحـيـم . . إن الوطن الذى تتـحـدث عنه لم يـرسل أحـدًا إلى لـيلة العيـد ليقـول كل عـام وأنت بخير يا حـمـيدة . . لم يكن يزورنى إلا رجل من رجال الاستخبارات) .

ثم تنهدت قـائلة : (وكان يعدنى كل مرة بأنك سوف يفرج عنك فى الأسـبـوع القـادم ، كل مـرة كـان يقـول ذلك . . أتفـهـم؟؟ وكنت أقـبـل يديه ورجليـه من أجلك ، كنت أريدك بأى ثمن . . ولـم يرد على ذهنى كلمة الوطن . . الجوعى والمجرومـون يفكرون فى أشياء غير تلك التى يفكر فيها المتخمون . . ويرتكبون حماقات محزنة) أدركت على التـو أن زوجتى تعانى أزمة نفسية شديدة ، إن الحزن المكبـوت طوال الأشـهر الثـمانية عشـرة يتفـجـر . . يقـذف بالنقـمة والرفض والاحـتـجاج دونما تعـقل أو رحـمـة . . ولا شك أن الزمن كفيل بأن يسمح على جراح زوجتى ، ويداوى أساها ، ومـا دمنا معًا فكل ذيول العناء القديم مآلها إلى زوال . .

- (نامى يا حبيبتى . . فالإنسـان لا يكون إنسـانًا إلا لأنه شـجاع حر ويمد يده للآخرين . . والوطن تضـحـيـة وحب ، مـهـمـا تنوعت السبل واختلفت الآراء . .) .

قالت وهى تجفف دموعها :

- (وأنا لا أرى أمـامى إلا الليـالى السـوداء الطويلة . . وأشـبـاح الخوف والذل والضياع) .

وكان لا بد أن أجرى بعض المكاتبات لعودتى إلى عملى، وتم كل شىء فى اليوم التالى بأقصى سرعة، وقال لى أحد رجال الاستخبارات:

- (لقد عفونا عنك لتبدأ حياة جديدة. . إن زوجتك عاقلة وجميلة).

ورنت من خلف ظهرى ضحكة ساخرة، آلمتنى أشد الألم، فالتفت خلفى، فوجدت رجلاً يقول:

- (أهم ما فى زوجته أنها خلّصت نفسها من هوس المبادئ).

لكأنما انغرس فى صدرى خنجر مسموم. . وعدت إلى البيت حزينًا مهمومًا، وتلطخ كل شىء أمامى بالسواد ولعبت الهواجس برأسى، ما أبشع الشك!! إن السجن بعذابه وحرمانه أهون من ذلك بكثير. . ولكن ماذا أفعل؟؟.

فى اليوم التالى تلقيت عديدًا من برقيات التهنئة، وبعض الخطابات، أمسكت بأحد الخطابات، وأنا لا أكاد أصدق:

(عزيزى وليد. . كانت زوجتك تلعب لعبة قذرة مع رجل من رجال الاستخبارات المهم أنها نجحت. . مبروك عليك).

فاعل خير

لم يعد لدىّ ما أقوله؟؟ تم الطلاق. . وهجرت المدينة إلى القرى. . ثم هجرت القرى إلى هنا. . وسمعت أخيرًا أنها تزوجت وأنجبت. . بالطبع لم تتزوج من رجل الاستخبارات.

نحن طائفة من مشوهى الحرب . . الصلحاء هم بلهاء زماننا ، والعابثون هم ملوك ليلة . . كان حبى لها لحظات ثم مات . . كما ستموت أنت وكما سأموت أنا ، أو كما سيموت رجل الاستخبارات . . الحب المعلق بفرد محدود وفانٍ ، أما حب الله فهو خالد ؛ لأنه متعلق بخالد .

آه . . نسيت أن أقول لك . . إنها قبل أن تتزوج أرسلت لها بالعودة . . كان شيئًا مضحكًا . . ألست معى فى أن الموتى لا يعودون للحياة مرة ثانية فى حياتنا تلك؟؟ .

قلت وأنا أهز رأسى فى أسى :

- (حينما نوارى الموتى التراب ، فلا ندفن معهم كل شىء . . هناك أشياء أخرى يفوح عطرها لسنين طويلة ، ولا يحجبها الموت أو النسيان) .

ضحك وقال :

- (أحد الصوفية يقول : ما أحببت شيئًا إلا كنت له عبدًا ، وهو سبحانه لا يحب أن تكون لغيره عبدًا) .

●●●

رجل فى الزحام

إنه يعيش على الهامش، وليس له تاريخ يذكر، ليس فى حياته إلا زراعة الأرض، ورعاية الماشية، وليالى الحصاد والرى واستخدام المبيدات الحشرية، وعلاقات قروية معروفة محدودة مع أهل بلد (أبو زعبل البلد)، وذلك من خلال المناسبات كالأفراح والمآتم وفض الخصومات، وتعليم الأولاد.

حينما دهمت الشرطة بيته الريفى الطينى، حملق الناس فى دهشة، أهل القرية أخذوا يضربون كفًا بكف، والأسئلة الحائرة المتأججة تتراقص كاللهب على وجوههم وفى أعينهم، فهم يعرفونه جيداً. . هل قتل. . سرق. . اختلس. . تاجر فى المخدرات أو تعاطاها؟ مستحيل لأن «سيد عبد البارى» مستقيم، حياته فى غالبها كالمثلث المتساوى الأضلاع، إحدى زواياه البيت، والثانية المسجد، والثالثة الغيط. .

سيد عبد البارى نفسه كان مذهولاً، ولم يكتشف الحقيقة إلا عندما أخذته الشرطة إلى مركز شرطة «الخانكة» فى البداية لم

يحاول أحد أن يوضح له الأمر ، كان الضابط والعسكر لايردون على استفسارات أحد ، وعندما سألت زوجه فاطمة :

- «ما هى الحكاية يا حضرة الضابط؟» .

نظروا إليها فى غضب وشك ، اعتبروا سؤالها تعبيراً عن اللؤم القروى ، والدهاء الريفى ، وتمتم أحد العسكر فى غضب :

- «أنتم تعرفون كل شىء يا ست هانم» .

- «هانم؟» .

ثم كشفت عن قدميها ، ورفعت يديها قائلة :

- «وهل تكون الهانم حافية ويداها فى الطين؟» .

أخيراً وصل «سيد عبد البارى» إلى مركز الشرطة حيث اكتشف لأول مرة أنه أحد معتقلى الإخوان المسلمين ، ووجد عدداً كبيراً من أهل القرية يعرفهم من قديم ، عندئذ شعر بفرح داخلى رائع ، ليس وحده الآن ، وليست هناك جريمة مخلة بالشرف . . لكن ما هى حكاية «الإخوان» هذه ، إنه لا يتذكر شيئًا من هذا ، كان يسمع عنهم ، وكان يصلى إحيانًا معهم ، واشترك فى بعض الاحتفالات ؛ لأنه كان يحب الحديث عن السيرة النبوية ، وقصص الصالحين والزهاد والصابرين . . كنت أبكى بالدموع الحارة وأنا أنصت لواقعة وفاة الرسول ، ، ولكلامه المؤثر لابنته فاطمة وزوجه عائشة . . إن

قلبه يخفق الآن ، ووجهه يحمر لمجرد تذكر ذلك . . ومات النبى سيد الخلق أجمعين وهو لا يملك درهمًا ولا دينارًا ، ولا شاة ولا بعيرًا . . يا حبيبى يا محمد . .

قذفوا بسيد عبد البارى فى معتقل اسمه «أوردى أبو زعبل» وهو سجن قديم بُنى فى زمن الأتراك ، لم يكن يعرف عنه شيئًا قبل ذلك ، فالمعروف أن فى أبو زعبل سجنان : الأول : المحاجر ، والثانى : السجن الجديد . . أما هذا المكان القمىء الموحش العتيق فلم يخطر له على بال . . إنه سجن عريق . . ربما حسبه أحد الملحقات لسجن أبو زعبل المعروف .

وأدخلوا «سيد» العنبر رقم ٦ مع الداخلين . . كان العنبر عبارة عن غرفة مستطيلة ، فى نهايتها دورة مياه وتراص فيها ثمانون من البشر ، لم يكن هناك مجال للحركة المريحة ، فهم يكادون يكونون متلاصقين ، وعند النوم يرقدون فى صفين متقابلين بينهما ممشى ضيق . . الوقت فى الفجر . . سبتمبر ٦٥ ، الزحام ، ورائحة العرق ، والأسى على الوجوه ، والكرب يزلزل فى الصدور .

وتمضى الأيام الكئيبة ، سيد عبد البارى يعيش على الهامش . . لا يعرف حقيقة ما يجرى . . يسمع عن قضايا . . وأسماء . . ومؤامرات . . وأخبار . . فيراقب ذلك كله بإمعان ودهشة ، وإن كان لا يعنيه فى واقع الأمر حديث السياسة ونظام الحكم . . وهو

واثق ألف فى المائة أنه لا صلة له بشىء من هذا كله، وربما اعتقلوه خطأ. . تشابه فى الاسم مثلاً، أو مكيدة صغيرة من حقود وإن كان لا يكره أحدًا، ولم يتعارك مع أحد، وليس له أو عليه ثأر قديم. . الحمد لله، لعلها ابتلاء من الله لعباده. . والدنيا اليوم تضرب. . تغلب. . العاطل على الباطل. . ولا أحد يفهم شيئًا. . والخطأ وارد يا سيد، جلّ من لا يسهو. . بالتأكيد سيكتشفون أنى مظلوم، ولا دخل لى بشىء. . إنها ثورة العمال والفلاحين. . وأنا فلاح أصيل ابن فلاح. . محاصيلى من أحسن محاصيل البلد، أعطونى الجائزة، وإن كان رئيس الجمعية اقتنص نصفها. . وسلمنى شهادة. . أى والله شهادة مثل شهادة الناجحين فى المدارس. . قلت لها: ضعيها فى برواز يا فاطمة قالت بلا شهادة بلا هباب. . المهم إن أولادنا يجود عليهم ربنا بالشهادة العالية.

يأكل سيد، ويشرب، وينام على «البرسن». . والأيام تمر كسيحة. . ويصلى باطمئنان. . الصلاة لوقتها. . ومن آن لآخر، ينقضون على العنبر، ويصيحون بأحد الأسماء، ثم يجرونه إلى الخارج، ويغلقون عليه الباب. . أين يذهبون به؟ ولماذا؟ ومن هو؟ ويسمع سيد الكثير من هؤلاء الذاهبين. . أحدهم مثلاً منذ عشرة أو عشرين عامًا زعيمًا للطلبة. . أو محاربًا ضد اليهود فى فلسطين. . أو مقاتلاً للإنجليز فى القنال، أو عضواً سابقًا فى الجهاز السرى. .

وأصبح هذا أمرًا عاديًا يحدث كل يوم، لكن اللافت للنظر أن بعض الذين أخذوهم من العنبر قد عادوا إلى بيوتهم، وهذا شيء يبشر بالخير . . معنى ذلك أن هناك احتمالاً كبيراً بأن يكتشفوا أن سيد لا دخل له فى «الثور ولا فى الطحين، ولا فى العير أو النقير»، ومن ثم فسوف يأتى العسكر ذات مساء وقد أظلمت الدنيا، ويقول له: «تعال يا سيد . . أنت حر . . اذهب لامرأتك فاطمة وأولادك . . »

ويظل هذا الحلم الجميل يراوده فى اليقظة وفى المنام، وعندما يستيقظ فى الفجر كل يوم، ويؤدى الصلاة ويختمها، ويجلس مع المعتقلين من أهل بلده، ويروى لهم الرؤيا التى رآها . . وقد تكون أكثر من واحدة، وكلها تؤكد أنه سوف يفرج عنه لا محالة، أصبحت الرؤيا كأنها جزء من الواقع والحقيقة، ولم يعد لديه أدنى شك فى الخروج من هذا الكهف المظلم «أوردى أبو زعبل» وتحقق الأمل . .

سمع اسمه يجلجل فى ساحة المعتقل . . كادت الفرحة تقتله . . تسابق المعتقلون إليه يهنئونه ويقبلون رأسه ووجهه ويحتضونه والدموع فى أعينهم . . ويحملونه الرسائل والوصايا الشفوية للأهل والأحباب «لا تنس يا سيد . . البنت لا بد أن يتم زفافها فى الموعد المحدد . . قل لهم إنى أرفض التأجيل . . يا سيد -أكرمك الله- أخبر ولدنا الأكبر أن لنا قرضًا عند الحاج بيومى، فليذهب إليه وليأخذه لينفق على العائلة . . وحياة والدك يا سيد قل للجماعة أن

يهتموا بتحسين ولدى . . إنها الثانوية العامة يا حبيبى . . » عشرات الرسائل وسيد يهز رأسه ويؤكد حرصه على إبلاغ المطلوب بمجرد وصوله إلى منزله .

وخرج سيد من العنبر ٦ فى الصباح الباكر ، تنفس الهواء البكر ، كان يفتح عينيه بصعوبة لأنها ألفت الظلام ، لم ينس أن يتوجه بالدعاء لمن معه ، قال وهو عند عتبة الباب :

- «ربنا يفرجها عنكم جميعًا . . يا رب . . » .

وذهب سيد عبد البارى وتركهم وفى نفسه قدر كبير من الألم لم يكن يتوقعه ، لكم يعز عليه فراق هؤلاء الأحباب . . لقد أحبهم بالفعل ، إنه يشعر بالمرارة من أجلهم ، حاول أن يبعد صورهم عن خياله فلم يستطع ، وسار مع العسكر كأنه فى حلم من أحلام الليالى التى عاشها فى هذا المكان ، لا يستطيع تجميع شوارد ذهنه . . وضعوه فى سيارة مكشوفة لم تمض به سوى بضع دقائق ، توقفت السيارة ، قالوا له «انزل يا باشا» نزل ونظر حوله وجد بناء جديدًا من أربعة طوابق . . وحوله سور عال ، وبابًا للسور وحراسًا . . ووجوهًا مكفهرة ، وغلظة .

- «أخرج منديلك واعصبه على عينيك» تلفت يمنة ويسرة ، ولمّا لم يجد أحدًا غيره مع العسكر قال :

- «أنا؟» .

رد العسكرى فى سخرية :

- «لا . . أنا . . وحياة أمك؟» .

ثم وكز سيد فى عنف وقال :

- «اربط عينيك يا حمار ، واخلع ملابسك . . » .

- «ملابسى؟؟» .

- «طبعًا . . أنا أتكلم بالعربى يا جاهل . . » .

وبعد قليل كان يمضى معصوب العينين عاريًا كما ولدته أمه رحمها الله ، وملابسه فى بقجة بيمينه ، والعسكرى يسحبه من يسراه . . هرب العالم من أمام عينيه ، وأصبح يرى فى مخيلته عالمًا آخر غامضًا ، ممتلئًا بالرؤى الغريبة والرعب ، والكوابيس ، سمع أصوات سياط وسبابا واستغاثات وتأوهات ، ازداد سمعه حدة ، وجسده ارتجافًا ، . . استسلم . . لحظات مزلزلة أهون منها الموت . . ماذا يجرى فى هذا العالم؟ لا وقت للسؤال ، عليه أن يصمت ويستمع ويتخيل ، وليترك الأمر لله .

- «فتشوه . . واتركوه . . » .

امتدت يد وأخذت منه «البقجة» ، وبعد دقائق أعادوها إليه ، ولا يدرى هل طال به الوقت أو قصر ، لم يكن قادرًا على استيعاب الزمان أو المكان ، الأحداث المتلاحقة تتكثف وتتداخل بصورة سريعة لا تدع

فرصة للتفكير الرصين، أو التحليل المتأنى . . لكن التعذيب والصراخ والأسئلة مستمرة، من نبرات الصوت يستطيع أن يفرق بين الجلاد والضحية، هل هذا هو الإفراج الذى منوه به، وحدثوه عنه؟ .

بعد ساعة . . ساعتين . . ثلاث . . لا يدرى، أعطوه فى يده رغيفًا وقطهة من الجبن «القريش» . . قالوا له، «كل يا ولد» لم يكن لديه أدنى رغبة . . تلكأ قليلاً . . لكن قبضة العسكرى هوت على قمة رأسه كالمطرقة ومعها الأمر «كل يا بهيم» شعر بشىء من الدوار، لكنه بدأ يأكل «اللقمة فى فمه كقطع الخشب . . وحاول أن ينجز المهمة فى أسرع وقت ممكن . . ونجح فى التهام الرغيف خلال دقائق معدودة . . » .

لكن المسمع الدامى لم يتوقف . . أصداء الضرب والعويل والسباب تدق أذنيه ورأسه . . فجأة وجد سيد نفسه يصرخ دون وعى منه :

- «أنا فين يا بيه» .

الجواب صفعة، وكلمة بذيئة لم يتوقعها سيد، وبعد لحظات سمع همسًا كالفحيح فى أذنه :

- «لا تنطق إلا إذا سألناك . . نحن فى جهنم . . مبسوط؟» قالها العسكرى لسيد وهو يمسك بأذنه اليمنى ويعتصرها بقوة حتى كاد يخلعها .

دمعت عينا سيد فى سكون، وانسكبت الدموع على وجنتيه راوده خاطر جامح أن ينقض بأسنانه على رقبة العسكرى، ويقضم حنجرته.

بعد فترة قال سيد:

- «يا بك.. لم أشرب، ولم أصلِ الظهر.. وأحتاج إلى..».

قال العسكرى:

- «خذوه إلى المرحاض.. أمامك دقيقة واحدة».

العصابة على عينيه، وجسده لم يزل عاريًا، قالوا إنه فى بلاد الماو ماو الناس -نساء ورجالاً- يمشون عرايا، ويتبولون فى الشوارع، ولم يكن سيد يصدق هذه الخرافات.. لكنه تأكد اليوم، واليوم فقط، إن ذلك ممكن جداً.. وبعد أن عاد إلى موقعه، وضع «البقجة» على عورته وصلى قاعداً، لم يمكن متأكدًا من اتجاه القبلة.. لكنه تخيلها واتجه نحوها بقلبه وصلى.. كان مؤمنًا أن صلاته مقبولة.. صلى بكل ذرة من كيانه.. كان وحده لكنه شعر أن الملائكة تصلى معه، وإن كان يتساءل بينه وبين نفسه: كيف تدخل الملائكة هذا المكان النجس؟

حلم آخر.. قيدوه.. وربطوا يده.. علقوه.. كان مدلى فى الهواء ولا يعرف المسافة التى تفصل بينه وبين الأرض، أو بينه وبين السقف.. رأسه أسفل.. شعر باحتقان وصداع فى رأسه ووجهه.. التنميل فى يديه وقدميه.

جلس المحقق على مقربة منه فوق مقعد، سمع سيد الأسئلة . . كان يجيب . . يجيب أى كلام . . أحداث كثيرة متنوعة يسألونه عنها . . الأرز . . سيد قطب . . بدر القصبى . . الخروج فى سبيل الله . . التبليغ . . كم مرة خرجت يا سيد عبد البارى؟ تكلم يا سيد . . وجاهلية القرن العشرين يا سيد . . ومعالم فى الطريق يا سيد . . عبد الفتاح إسماعيل اعترف عليك يا سيد . . والتاث عقل سيد عبد البارى . . إنه لا يفهم شيئًا على الإطلاق، ولا يستطيع أن يربط بين السؤال والسؤال، ولا الأسماء أو الأحداث . . ثم أخذ يتكلم عن أشياء تافهة فى الغيط، وفى الحارة، ومقابلات وزيارات مع جيرانه، ومناسبات فى القرية، إنهم يريدونه أن يتكلم، فأخذ يروى أى شىء يخطر على باله . . ومن آن لآخر يصطدم سمعه بكلمة كبيرة من ذلك الكلام الذى تقوله الصحف أو الإذاعات أو الخطباء، لم يكن يهتم بشىء من هذا، وإذا اهتم به يومًا فلم يكن الأمر يتجاوز السطح، بل كثيراً ما كان لهذه الألفاظ والمصطلحات الضخمة الفخمة فى خياله مدلولاً خاصًا مدلولها العام الذى يقصدونه . . ولهذا كان المحقق يندهش لأجاباته وردود أفعاله، مما جعله يوجه إلى رأسه وهو مدلى ضربة قوية، جعلته يشعر بالدوار ثم يسقط فيما يشبه الإغماء ويصمت تمامًا لفترة لا يدرى قياسها . . ثم عاد سيد بعد ذلك يهذى ويخلط . .

فى النهاية سمعهم سيد يقولون :

- «إنه لا يفقه شيئًا . . ولا فائدة منه . . أنزلوه وأعيدوه حيث كان» .

إن سيد لا يستطيع أن يتذكر تفاصيل ما جرى ، كان يتحرك والعصابة على عينيه ، ورجلاه تتحركان فى اتجاهات شتى ، لا يعرف شرقًا من غرب ، ولا ليلاً من نهار ، غارق فى متاهة من الفوضى والقسوة والضياع واليأس . . لم ينقطع العويل والسباب والأسئلة والإجابات . . «يا رب رحمتك» «مظلوم يا ناس» «الحكاية كلها تلفيق . . كذب فى كذب . . » .

وسمع أيضًا أصوات أخرى ، رجل ذو لكنة رسمية واثقة يقول :

«إذا أردت أن تعرف الحقيقة فابحث عن الأرز» .

لم يصدق سيد أذنيه ، وما دخل الأرز فى أمور خطيرة كهذه؟

لا شك أنهم يمزحون . . أو أنه هو شخصًا يحلم . . والأحلام مملوءة بالتخاريف .

نعم سألوه عن الأرز كثيراً . . عن كل كيلرجرام اشتراه من الأرز فى العام الماضى . . عن التاجر الذى اشترى منه ، وعن الثمن . . وعن بدر القصبى ، آه بدر القصبى حكايته طويلة غريبة . . وسيد لا يعرف بدر القصبى معرفة شخصية . . ذهب سيد عبد البارى مع

الذاهبين ليهنئ بدر القصبى بعد خروجه من السجن منذ عام أو أكثر. ولم يره بعدها إلا مرتين أو ثلاث. . عرضًا فى الشارع أو المسجد. . ولا شىء غير ذلك. . ثم سمع -والله أعلم- أنهم اعتقلوه منذ ما يقرب من شهر. . وكان حديث المحقق يدور حول الأرز وبدر القصبى. . إنها طلاسم غريبة لا يفهمها سيد، راوده الضحك. . لكن كيف يضحك وهو على هذا الحال السيئ، وفى هذه الظروف الهباب؟.

وأخيرًا عاد سيد إلى عنبر ٦ فى معتقل «أوردى أبو زعبل» مرة أخرى، لم يدرك ذلك إلا عندما قالوا له: «فك العصابة التى تغطى عينيك»، ثم دفعوا به وهو لم يزل يحاول فكها مرتبكًا إلى الداخل، ونظر حوله فوجد عشرات للعيون مركّزة عليه. . إنهم إخوانه فى العنبر. . كانوا مذهولين، لم يكن إفراجًا، إذن، حاول أن يتكلم فلم يستطع، تجمهر حوله الأخوة، وكل يوجه إليه السؤال نفسه: ماذا حدث؟ وهو الحائر المشتت لا يعرف بماذا يجيب. . وانفجر باكيًا. . احتضنه أحد الأخوة القدامى من ذوى التجارب والخبرة، وضمه إلى صدره وهو يقول: «دعوه يسترح. . أخوكم قادم من تحقيق صعب. . ».

انحنت الرؤوس إجلالاً وإكبارًا لقدسية الدموع الطاهرة، كان الوقت ليلاً. . والنجوم بلا قمر تبدو عبر قضبان النوافذ الحديدية للعنبر تلمع فى برود:

ارتاح سيد قليلاً بالقرب من الباب المغلق . .

- «ماذا جرى؟» قالها أحدهم، قال سيد فى هدوء شارد: «سألونى عن الأرز» ضحكوا بوقار.

قال أحدهم: «ولماذا تضحكون؟ ألا تعلمون؟ إن أحد المهتمين الرئيسيين الثلاثة كان تاجراً للأرز . . هل سمعتم باسم عبد الفتاح إسماعيل؟ إنه المتهم الثانى أو الثالث فى المؤامرة التنى نشرت عنها الصحف . . ».

كان سيد يستمع إليه فى ذهول، ثم تمتم:

- «الأمر صحيح إذن».

- «نعم، لقد اعتقلوا كل من له صلة بتجارة الأرز مع عبد الفتاح إسماعيل . . يقولون إن التعليمات والأوامر كانت توزع مع الصفقات على أعضاء التنظيم . . ومن هنا اكتسب الأرز أهميته . . ».

وعلق أحد الساخرين قائلاً:

- «الأرز يكتسب أهميته لأنه أولاً غذاء شعبى لا يمكن الاستغناء عنه، ولأن تأثيره السياسى بعيد المدى، لأن الكوسة . . . ».

وعلق سيد مقاطعًا:

- «لكنى لم أكن أعلم».

وساد لغط، واتضح أن البعض، وخاصة الذين اعتقلوا فى وقت متأخر يعرفون الكثير عن الأرز وعن عبد الفتاح إسماعيل من الصحف السيارة، وقال سيد أخيراً:

- «هذا كل شىء.. ولم يوجهوا إلىّ أسئلة غير هذه.. ثم انتقل سيد إلى مجموعة أخرى من المعتقلين فى وسط العنبر، وأحاطوا به كما فعلت المجموعة الأولى بالقرب من الباب منذ دقائق».

سأله أحد أفراد هذه المجموعة الجديدة:

- «قل لنا يا سيد ماذا حدث بالضبط».

تلفت سيد حوله مرهقًا، وهو يتفحص الوجوه، وقال:

- «أريد شربة ماء».

تسابقوا إليه بأكواز من الزنك.. شرب وحمد الله ثم قال وهو يحمد الله:

- «عندما وكزنى المعلم قلت.. «أقسم بالله ثلاثًا إننى لم أذهب إلى محمد بو زريق فى «القلج» إلا لمواساته فى المصيبة الكبرى..» قال لى المعلم: «أية مصيبة يا سيد؟» قلت: «الجاموسة يا بك!! لقد مرضت جاموسته وذبحوها، وهذه بالنسبة للفلاح منا كارثة يا بك» فهقه المعلم وقال لى: يا سيد أنت جاموس أبيض..» هل فيكم يا إخوان من يعرف الجاموس الأبيض؟».

وابتسم الأخوة فى مرارة وقال أحدهم :

- «هل هذه هى القضية التى حققوا معك فيها اليوم» .

قال سيد عبد البارى بثقة :

- «نعم ولا شىء غيرها . .» .

تبادلوا النظرات وسكتوا ، بينما أنسل سيد وزحف ناحية القسم الخلفى والأخير من العنبر حيث يتراص معظم أبناء بلده ، فأفسحوا له مكانًا ، وربتوا على كتفه وظهره فى حنان ، وقال واحد منهم :

- «لقد خدعوك . . كنت تظن أنه الإفراج» .

- «أى والله . . لم أكن أظن أنهم سيأخذوننى إلى جهنم الحمراء . .» .

وشرد وهو يقول : هناك الزبانية . . تذكرت عذاب القبر ، والشجاع الأقرع الذى يحدثنا عنه شيخ المسجد . .

سأل سائل :

- «ما هى التهمة التى حققوا معك فيه بالضبط . .» .

غمغم سيد : «بالضبط ؟ ؟» .

- «نعم . .» .

تربع سيد وتنهد، ودار بنظراته الحائرة هنا وهناك، ثم قال بصوت هامس:

- «السلاح.. نعم السلاح.. وأنا شخصيًا لم أر فى حياتى إلا بندقية الخفراء، ومرة واحدة رأيت «الطبنجة أم ساقية»، وأنا لا صلة لى بالسلاح، وفيم استخدمه؟ أنا لست قاطع طريق ولا زعيم عصابة.. ضربونى.. قالوا أين السلاح يا جاموس أبيض..؟ كيف أرشدهم على سلاح لا وجود له؟ هل أكذب؟ أخذت من الضرب ما لم يأخذه حرامى فى مولد.. ولا حمار فى مطلع.. قلت لهم أنا عندى شهادة من الحكومة.. قالوا لى دكتوراة؟ قلت لا، فى الإنتاج الزراعى.. لقد كرمنى السيد المحافظ.. لكن كان عليهم عفريت إسمه السلاح.. هل فيكم من رأى الجاموس الأبيض؟؟ لم يحققوا معى فى شىء إطلاقًا إلا السلاح..».

وفى كل مرة يحكى سيد عبد البارى قصة جديدة عن التحقيق الذى أجرى معه، ويؤكد أنه الموضوع الوحيد الذى دارت حوله الأسئلة:

قال سيد فجأة:

- «هنا جنة.. تصوروا أن عنبر ٦ هذا هو النعيم.. ليتهم يتركوننا هنا إلى أن يشاء الله.. احمدوا الله على ما نحن فيه..».

قال وهو يتثاءب :

- «أريد أن أنام» .

- ألا تأكل يا سيد؟!

- «لقد شبعت» . .

ثم تمتم :

- «وما أبشع أن يكون الإنسان أعمى . . » .

وما كاد سيد يضع رأسه على الأرض الصلدة ، حتى سمع الأخوة غطيطه . . وطوال الليل كان يهذى حتى الفجر عندما أيقظوه للصلاة ، وبعد أن ختم الصلاة ، وأكل لقيمات معهم وشرب قال :

- «يجب أن أعرف . . » .

- «ماذا يا سيد؟؟» .

- «كلمات سمعتها لا أفهم لها معنى . . المجموعة . . التبليغ التنظيم . . الأستاذ العراقى . . والدكتور الملط . . والمودودى . . أنا لا أقرأ ولا أكتب ، لا أعرف من الحروف التى خلقها الله إلا التوقيع باسمى . . يجب أن أفهم كل شىء . . على الأقل أستطيع فى الوقت المناسب أن أجد الجواب على أسئلتهم . . » .

وأخذ الخبراء المتمرسون يشرحون لسيد ما استغلق عليه من الأسماء والوقائع، وكان سعيدًا وهو يستمع ويفهم، إنه عالم غريب جديد بالنسبة له، وفيه طرافة، وشعر بشيء من الزهو عندما أدرك أن الحكومة تحسب حسابه، وتتوجس منه خيفة، لدرجة أن تعتقله مع الموظفين وكبار الشخصيات والدكاترة والمهندسين، لكن الذى أدهشه غاية الدهشة أن الحكومة والمحققين لا يهتمون بهموم الفلاح، ولم يسألوه سؤالاً واحدًا عنها . .

وبقى سيد طوال الوقت يتعلم القراءة والكتابة، ويحفظ آيات من القرآن . . ويوم أن خرج بعد عام ونصف من المعتقل قال :

– والحمد لله، لقد نلت شهادة أعظم من الشهادة التى سلمها لى المحافظ . .

وقهقه فى سعادة، وهو يركب السيارة المكشوفة التى تقله إلى مركز الشرطة وقال :

– «زوجتى فاطمة لن تعرفنى . . ».

●●●

قلب امرأة

خيم على البيت جو مزعج من الكآبة والتوتر، البيت الهادئ المريح، ذلك العش الجميل الذى كان يورق دائمًا- كالربيع- بالحب والأمل والضحكات المرحة أمسى مقبضًا، ها هو «سالم» يصرخ لأوهى الأسباب، ويوجه إليها . . إلى زوجته «ليلى» التعليقات الساخرة، التى تطفح بالمرارة والحنق . . لقد مر عليها عام كان كالحلم الجميل . . الشوق والحب والذكريات الشذية . . ولديها المال الكثير . . و«فيلا» فاخرة . . مكيفة الهواء، رائعة الأثاث، وثلاثة من الخدم المخلصين . . وفجأة هزتهما يد عنيفة فأفاقا إلى حقيقة مؤلمة . . أدركا أنه ينقصهما شىء مهم . . الولد . .

وذات مساء تمتم سالم محتقن الوجه:

- «نحن كالأرض الخراب . . ».

قالت ليلى:

- «لا حيلة لنا فى الأمر . . لقد أكدت لى الطبيبة أننى طبيعية . . ليس هناك شىء يحتاج لعلاج» .

وهب سالم واقفًا، وصرخ كمن سدد إلى قلبه سهم قاتل :

- «والطبيب وصل إلى النتيجة نفسها بالنسبة لى» .

- «بقى أن نصبر يا سالم» .

- «أنا أكره العجز . . دائمًا كنت أحقق كل ما أريد» .

أرادت أن تهدئ من ثورته، حاولت أن تبعث فى قلبه موات الأمل، الأمر سهل لا تعقيد فيه، ما دام ليس هناك ما يمنع من الإنجاب، المسألة مسألة وقت، وكل شىء بأوان .

وتذكرت المطر . . ينهل من السماء العابسة المتجهمة ويذوب فى أحشاء الأرض القاحلة . . فتتمطى وتتثاءب . . وتستيقظ . . ثم يبتسم الزرع الأخضر . . وتتجلى الورود كشفاه ندية تقبل الوجود، كل الوجود . . معجزة الخصب الخالدة .

«عندما تخضر الصحراء يا سالم . . أشعر بالحياة يغنى فى صدرى الأمل، وتنسكب دموع الفرح . . » .

دفعها سالم فى غيظ، وانتحى جانبًا، ثم ملأ كأسًا، وشربها دفعه واحدة . . واستدار نحوها قائلاً :

- «لا بد أن يكون لى ولد» .

- «وأنا؟؟ كنت أعتقد أن حبى لك يشغلك عن أى شىء آخر . . » .

وشرب كأسًا ثانية ، وقال فى وقاحة :

- «العقيم كالشجرة التى لا تثمر . . النار أولى بها» .

انقبض صدرها ، صدمت بحديثه العارى من كل عاطفة نبيلة .

- «إذن كانت حياتنا خداعًا» .

- «لا أدرى . . إننى أنظر إلى الناطور الذى ينجب كل عام فأكاد أجن . . أين العدل فى ذلك؟؟ ومع هذا فإنى أستطيع أن أجد الحل . . » .

لم تكن من الغباء بحيث يخفى عليها ما يقصده ، تلك طبيعة الرجال ، إنه بالتأكيد يفكر فى الزواج من امرأة أخرى ، وعندما أدركت ذلك ، اشتعل قلبها غيظًا ، وهتفت :

- «لست المسؤولة وحدى عن ذلك» .

قهقة فى سخرية :

- «ما على إلا أن أحمل وألد نيابة عنك» .

استخفت تعليقه الجارح ، لكنها لم تستطع أن تقول شيئًا ، أرخت أهدابها فى ذلة ، انصرفت إلى المطبخ ومضت أيامها ثقيلة مملة ، شعرت بأنها صغيرة ، تافهة وأنها ترمى بجريمة لم ترتكبها ،

وتلام على فعل لم تفعله، كالبرىء الذى يعلق على المشنقة، وهو لا يدرى أى جرم ولغ فيه. . شعورها بالظلم، وعدم اقتناعها بما تعانية من ألم وذل، دفعاها إلى سخط قاتل. . وكان مرور الأيام يزيد من تعاستها، ويعقد مشكلتها أكثر فأكثر، ها هو يقضى نهاره فى العمل، وينصرف فى المساء إلى سهراته التى تقترب من الفجر، ويعود مرهقًا سكرانًا، يبعثر شتائمه هنا وهناك، أصبح يسخر من كل شىء. . من قميص النوم الذى ترتديه، من تصفيف شعرها، من مكياج وجهها، كل الأشياء التى كانت تسحره فى الماضى، أصبحت تنفره، وسرعان ما يلقى بجسده المرهق على الفراش، ثم يمضى فى سبات عميق.

وها هو شعور الغربة والوحدة يلازمها مضافًا إليه شعور الظلم والذلة. . لكنها كانت تناضل مستميتة من أجل الحفاظ على صفاء قلبها وروحها، كانت تتشبث بالذكريات الجميلة، وبالعلاقة الزوجية المقدسة، وحاولت أن تقنع نفسها بأن زوجها ليس مسؤولاً تمامًا عن كل ما يجرى، إذ إن كل رجل يتمنى أن يكون له ولد، تلك سنة من سنن الحياة. . والولد نبع سحرى من السعادة والحنان. . إشباع لأمنية غريزية تنتفض بها الروح، ويخفق بها القلب. . ذلك فى الدم والروح. . مسكين سالم!! يجب أن أعذره، وأتغاضى عن هفواته. . وتدمع عيناها وتتطلع إلى السماء فى ضراعة صامتة، أبلغ

من آلاف الدعوات.. ثم تتطلع عبر النافذة إلى السماء والصحراء.. والمطر.. ورائحة الخصب تملأ خياشيمها.

وفى صبيحة أحد الأيام قال لها إنه مسافر إلى «شيراز» لعقد صفقة تجارية، وإنه قد يتأخر أسبوعين، فدعت له بالتوفيق والسلامة، وسعدت أيما سعادة بهذه الفرصة الذهبية؛ لأنها ستنتهزها وتذهب إلى جميع من تعرف من الأطباء والطبيبات، سوف تفعل المستحيل من أجل «الولد».. لإسعاد زوجها وللعودة مرة ثانية إلى الحياة الرائعة.. أيام الزواج الأولى.. التى مرت كالحلم الفاتن.

وظلت تجرى هنا وهناك بين عيادات الأطباء، والمطوعين والدجالين، لم تترك بابًا إلا وطرقته، وذهبت أخيرًا إلى الطبيب الذى ذهب إليه زوجها.. وبعد أن أجرى لها جميع الفحوص اللازمة، قال:

- «أستطيع أن أؤكد أنك سليمة مائة فى المائة».

ثم استطرد:

- «بقى أن يحضر زوجك إلى.. إننا نفضل البدء بفحص الرجال أولاً».

قالت فى دهشة:

- «لكنك فحصته..».

- «مَنْ؟؟» .

- «سالم بن . . » .

- شحب وجه الطبيب ، وبدا عليه الاضطراب والحيرة ، وتمتم :

- «لكنه يعلم . . » .

نهضت مذهولة وأمسكت بيد الطبيب ضارعة وقالت :

- «يعلم ماذا؟؟» .

- «ألم يخبرك» .

- «أخبرني أن . . » .

قال الطبيب في إيجاز :

- «إن حالته ميؤوس منها . . تلك هي الحقيقة» .

تهاوت على المقعد ، تندى جبينها بالعرق ، ثم شهقت باكية :

- «مستحيل . . مستحيل» .

ربت الطبيب على ظهرها في ود ، وهو يعض على شاربه الأبيض .

- «يجب أن نرضى بما قسمه الله . . لا ذنب لك ، وفي الحقيقة لا ذنب له هو الآخر . . » .

قالت وهى تجفف دموعها :

- «لقد كان يفكر فى الزواج من غيرى» .

ابتسم الطبيب قائلاً :

- «إننى لا أوافقه على كتمان الأمر عنك . . لماذا تتعرضين للظلم والتقريع وأنت بريئة كل البراءة . . لكن يجب أن تعدينى بأن تكتمى سره» .

ربما شعرت بارتياح مفاجئ وعادت إلى نفسها الثقة الضائعة ، لكأنما انزاح عن كاهلها عبء ثقيل . وشعرت بالعطف على زوجها ، إنه كان يحاول أن يخفى نقصه وراء الكأس والكذب والألفاظ القاسية . . وتذكرت الربيع والمطر . . والأرض إذ تنتعش . . وترتوى ، وتبتسم عن ورد وأزهار وأوراق خضراء .

فسالت على وجنتيها الدموع .

وعاد سالم بعد أسبوعين ، استقبلته فى ود ولهفة وعلى الرغم مما كان يشعر به من صدق عواطفها ، وحرارة لقائها إلا أنه قال :

- «لا تحزنى . . كان لا بد أن يحدث . . لقد تزوجت . ولك مطلق الحرية فى أن تبقى . . أو . . » .

نظرت إليه فى دهشة ، لم ترتجف أو تتهاوى ، بل ظلت شامخة ، وهمست فى حزن :

- «بل سأبقى».

أحنقه ذلك، كان يتمنى لو هرولت إلى الخارج، وتركته وحده، ولكنه فوجئ بموقفها الغريب، كان يعلم أنها تعتز بكبريائها وشخصيتها، وتأنف من أن تشاركها امرأة أخرى فى حياتها، إن شعور المرأة بأنها لا تملأ حياة زوجها شعور قاتل تتولد منه براكين من النقمة والتمرد المكظوم.

وتمتم:

- «حسنًا.. يجب أن ترضى بالواقع، ولا تثيرى القلاقل».

- «سأظل وفية لك طول حياتى».

زمجر فى حماقة:

- «هذا لا يهم.. أعنى أنه أمر بديهى.. أتظنين نفسك قادرة على العصيان.. أنت مجرد امرأة».

ألهبتها كلماته الأخيرة، شعرت أنها حشرة.. مخلوقة تافهة لا قيمة لها، فرضت عليها الطاعة لكأنها مرغمة على الفضيلة، له أن يتصرف فى رعونة، ويدوس عواطفها، ويسخر من كبريائها، ثم عليها أن تستسلم وترضخ وتذل، لا مناص من أن تكون مخلصة وفية لا كطبيعة فيها، ولكن لأن الرجل يريد ذلك.

وتمتم بصوت خفيض:

- «وأنا لم أيأس بعد . . وإنجاب طفل أمر هين يفعله ملايين البشر فى كل مكان» .

رق قلبها من جديد، تطلعت إلى مأساته التى يخفيها وراء المظهر الخشن، والكلمات الجارحة، والتصرفات الشاذة، فاغرورقت عيناها بالدموع، واقتربت منه، وضمته إلى صدرها فى إشفاق وحنان، نظر إليها فى دهشة، وقالت :

- «لن أتخلى عنك فى محنتك» .

ضحك ساخراً وهز كتفيه باستغراب :

- «لست فى محنة» .

أمسكت بيده فى قوة وتشبث وقالت :

- «أنا أعلم بكل شيء» .

صرخ فى ذعر :

- «ماذا؟؟» .

- «أنت بالنسبة لى الزوج . . والأخ . . والابن . . أنت حياتى» .

دق قلبه هلعًا، وامتقع وجهه، وانتزع يده هاتفًا :

- «ماذا تقصدين؟؟» .

وهمت أن تصرح له بالحقيقة، لكنها أبت أن تهبط بكبرياء الرجل، وتجرعه كأس المرارة والهوان . . إنه زوجها الذى تحبه، وبدأ أمامها تعسًا مسكينًا محرومًا، عاجزًا، وتدفق نبع الحنان الأصيل من قلبها، وانسكب على لسانها :

- «أنت لو تزوجت ثالثة ورابعة فلن أخرج من هنا . . لأنى فقط أحبك . . وقد يشفينى الله من عقمى فى يوم من الأيام» .

مال نحوها، وطبع على جبينها قبلة حانية، وقد اطمأن باله وقال :

- «أو تظنين أننى أستطيع أن أتزوج غيرك؟؟ كان مجرد امتحان لأتبين مدى صدق ولائك وحبك» .

وأخذت تضحك . . وتضحك . . . لكن الدموع كانت تملأ عينيها .

●●●

الرجل.. والأرنب

كان الجو شديد البرودة، برغم انحسار وجه الشمس المائلة نحو الغروب، وحقول البرسيم الخضرواء تمتد إلى مسافات بعيدة، ووقف «عبد الله السروجى» بعوده الفارع النحيل، وجلبابه الأزرق، ينظر إلى الأفق الغربى فى حسرة وألم، كان جسده يرتجف، وعيناه زائغتين، وقلبه يخفق بشدة، شعر أن ساقية لا تكادان تحملانه، اسودت الدنيا فى وجهه وقد شعر بدوار، ثم ارتمى على البرسيم ممددًا يلهث صرخ طفله الصغير «الشحات» وأسرع الجيران لنجدته، تحلقوا حول الرجل الذى سقط، أخذوا يدلكون يديه ورجليه الحافيتين الباردتين، ويقرأون بعض سورة القرآن القصيرة، هتفوا باسمه فلم يرد، أغمض عينيه الغائرتين، وبدأ وجهه مزرقًا وكذلك شفتاه الجافتين، جرى أحدهم ليحضر له جرعة ماء من الترعة القريبة، بينما حاول آخر أن يعصر له ليمونة فى فيه، ولما فشلوا فى إيقاظه من إغمائته، لفوه «ببشت» من الصوف، وأجلسوه فوق حماره الأعرج، وركب خلفه شاب

ليسنده، ومضى الحمار الأسود المتهالك يشق طريقه عبر الأوحال حتى وصل إلى الزقاق.

وعندما رأت «نجية» زوجها فوق الحمار ورأسه مدلى على صدره انبعثت صرختها مدوية، تجمهر الأطفال والنسوة وازدحم الزقاق بنظرات التساؤل والدهشة.. وداخل الدار تطلعت البقرة الوحيدة بعينيها الواسعتين بعد أن أدارت رأسها من المزود إلى ناحية باب الدار وزامت.

قالت امرأة:

- «ضربة شمس».

وردت أخرى:

- «ضربة شمس فى عز البرد؟».

وهتفت أمه العجوز:

- «دوخة وتزول».

لم يكن فى القرية مستشفى ولا طبيب، وجىء بالحلاق، قاس له الحرارة، وتحسس صدره وبطنه ورأسه وتمتم:

- «إنه ضعيف، يحتاج إلى تغذية».

وأمرهم بأن يعدوا له فنجانًا من الشاى، وكوبًا من عصير

الليمون، وحساء الأرز وأرنبًا مسلوقًا . . ثم أخرج محقنة وأعطاه «الكورامين» قائلاً :

- «الحقنة تنشط القلب، وتوقظه من الغيبوبة»، كما أمرهم بأن يشعلوا على الفور موقدًا من الخشب، فالدفء ضرورى فى مثل هذه الحالات، وعلق قائلاً : «إذا كانت نسمة الصيف أحدّ من السيف، فكيف تكون نسمة الشتاء؟؟» .

وانصرف الناس بعد أن فتح «عبد الله السروجى» عينيه، وسرت فى جسده الحرارة، وتساءل فى خجل :

- «أين الأرنب؟؟» .

طأطأت نجية رأسها وقالت :

- أنت تعرف، اليد قصيرة، والعين بصيرة، ابتسم عبد الله فى مرارة وقال :

- «منذ شهرين وأنا أحلم بالأرنب، يخيل إلى أن فيه الشفاء» .

- «منذ الحرب وأيام هتلر السوداء والناس لا يجدون الرغيف إلا بصعوبة» .

- «لبن البقرة فيه الشفاء يا عبد الله» .

كانت نجية تقلب الحساء، والعجوز أم عبد الله تدعو الله والدموع على خديها، وطفلاه الشحات ولطيفة يلوكان قطعة من الخبز

الأسود، وعيونهما تنتقلان من الحساء إلى كوب الشاى، وأدركت الأم ما يفكران فيه، فنهرتهما قائلة: «لا تنظرا هكذا إلى علاج أبيكما المريض».

وعاد عبد الله يقول:

- «يقولون إن لحم الأرنب سهل الهضم، خفيف على المعدة، ويعجل الشفاء».

لم تحب نجية هذه المرة، فهم لا يملكون شيئًا إلا الحمار الأعرج، أما البقرة فقد اشتراها لهم أحد الأغنياء، ليتولوا شؤونها، ويستفيدوا من لبنها، ويستخدموها فى الحرث وإدارة الساقية، فإذا ما ولدت تقاسما ثمن وليدها، ونصف الفدان الذى يزرعه عبد الله مستأجر، ويمر الشهر تلو الشهر دون أن يتجمع لديه بضعة قروش، وأحيانًا لا يجد ثمن الجاز الذى يضىء به البيت.

- «تصورى يا نجية.. لقد حلمت بالأمس أننى أكلت أرنبًا بكاملة.. كان لذيذ الطعم.. شهيًا.. الغريب فى الأمر أن الحلم بدا لى حقيقة لدرجة أنى صحوت من النوم وأنا أشعر بالشبع.. سبحان الله..».

أردفت نجية:

- «الحمد الله على نعمته».

- «ألف شكر وحمد».

ثم عاد عبد الله يقول:

- «عندما تذبحين الأرنب، فلن آكل إلا نصف الثدر، والباقى للأولاد ولأمى ولك».

ردت نجية:

- «طلب الحلاق خمسة قروش».

- «يا للمصيبة!!! كيف؟؟».

- «ثمن الحقنة التى ردت إليك الروح».

- «هل ظن نفسه دكتور؟».

- «لم ندفع له شيئًا بعد..».

وكانت نجية قد فكرت ودبرت أمرها، لسوف تجمع لبن البقرة لثلاثة أو أربعة أيام، ثم تحيله إلى زبد وجبن، وتبيعها فى سوق الخميس، لكى تجمع القروش الخمسة، وبعدها تفكر فى موضوع شراء الأرنب، فهو يحتاج إلى إنتاج أسبوع كامل على الأقل من لبن البقرة.

تألم أهل الزقاق لمرض «عبد الله السروجى»، فهو رجل مسكين لا يتصادم مع أحد، ولا يضن بجهده على إخوانه الفلاحين عندما ينتدبونه لمساعدتهم فى مواسم الزراعة والحصاد، لكنهم لم يتفقوا

على نوعيه «المرض» الذى أصابه، وإن كان هناك ما يشبه الإجماع بأنه يعانى من فقر الدم، وتتساءل إحدى النسوة؛ «لماذا يعانى الناس من فقر الدم ولا تعانى منه البهائم؟»، ويرد عليها زوجها مازحًا: «لأن الحكومة تمص دم الفلاحين.. ألا ترين أنهم يجمعون محاصيل القمح، ويأخذونها بأرخص الأسعار!! ويرسلونها للإنجليز فى الحرب.. وأحيانًا لا يكفى المحصول لحصة الحكومة فتشتريه من السوق السوداء، وتوردها لهم بثمن بخس!! والحكومة يا امرأة لا تستولى على البرسيم ولا على «تبن» البهائم.. هل عرفت كيف يأتى فقر الدم..».

وصمتت المرأة قليلاً وقالت:

- «مسكين عبد الله السروجى نفسه مشتاقة لأكل الأرانب».

- «وهل سيطيل الأرنب عمره؟؟».

- «ولم لا؟ الله أعلم».

- «إذن..».

- «نعم.. لقد قررت.. ولسوف أزورهم وأقدم لهم الأرنب لوجه الله.. صدقة».

ازداد الوهن بعبد الله، وبدته عيناه ووجنتاه غائرتين أكثر من ذى قبل، وتحولت زرقة وجهه إلى شحوب ظاهر، وازداد لهاثه سرعة،

كما ازداد بياض عينيه صفرة، وأصبح يهذى بكلمات لا معنى لها، وقد يغيب عن الوجود ساعات ثم يفيق.

ودخلت الجارة ومعها الأرنب، أشرقت ملامحه فى إحدى صحواته بالفرح، وسال لعابه، وخيل إليه أنه أقرب ما يكون إلى الشفاء، بينما أحنت زوجة نجية رأسها فى خجل، وتمتمت شاكرة وهى تقول للجارة:

- «لماذا التعب؟».

- «هذا واجب».

وضحك الشحات ولطيفة، وانطلقا يتشاحنان مَنْ سيأخذ الرأس، ومن سيحصل على الأرجل، ومن سيمص العظام، وأخذ البخار يتصاعد من القدر مختلطًا بدخان نيران الحطب، وسرى الدفء فى البيت كله، كما ساد الأمل والانتعاش، لكأن شفاء عبد الله كان مرهونًا بالحصول على هذا الأرنب، فالثقة فى سره أكبر من الثقة فى أى دواء آخر فى العالم.

وابتسمت نجية قائلة لعبد الله:

- «الغذاء الجيد يشد العصب.. ويقوى الهمة، رأى فى عينيها إشرقه الأيام الخالية الجميلة، وذكريات الحب العريق، ودفء الليالى الطويلة، وقرأ- وهو الأمى- سطورًا وضّاءة

شجية تموج بالهمسات الحلوة، واللمسات الحانية، والعواطف الموارة، وتمتم:

- «أترى يعود الأمان».

- «ليس هذا بكثير على الله يا عبد الله».

تنهد قائلاً: «يا ليت!!».

ثم استطرد:

- «إذا كسرت المرآة يا نجية..».

قاطعته قائلة فيما يشبه الثقة:

- «لاتقل هذا.. إننا دائمًا نمرض..ثم يأتى الشفاء من الله..وليس فينا من ذهب إلى طبيب أبدًا».

- «لكن هذه المرة يا نجية أشعر..».

- «إنها ستكون مثل غيرها من المرات».

- «وكل شىء فى هذه الأيام يسوء يا نجية.. الحياة والناس.. والصحة...و..».

- «الدنيا بخير».

- «الدنيا حرب يا نجية».

قالت فجأة:

- «الأرنب سيكون جاهزًا في دقائق».

لم يرد هذه المرة، بقيت عيناه محملقتان من تجويفهما الغائر، وشعر بجفاف في حلقه. . الألم يعتصر بطنه من الداخل، حاول أن يتأوه فلم تسعفه حنجرته، كتم تأوهه، وخيّل إليه أن ذلك التأوه المكتوم يزيد من ألمه. . لقد تدرب على الصبر طول حياته، حتى أصبح يستسيغ مرارته دون مشقة. . هو يعرف قصة «سيدنا أيوب» المثل الأعلى في الصبر. . لقد صبر أيوب سبع سنوات وسيدنا يوسف صبر في السجن سبعًا أيضًا. . وهذه الشدة التي يعاني منها عبد الله لم يكد يمر عليها سبعة أيام. . فلماذا لا يحتمل أكثر من ذلك؟؟

وضعت نجية الأرنب المقلي أمامه، وإلى جواره الأرز الأبيض. . وطبقًا من الحساء. . ابتسم عبد الله وهو ينظر إلى غريمه الذي طال انتظاره. . منذ متى لم يأكل الأرانب واللحم؟ إنها فترة طويلة، وبقي عبد الله صامتًا ساكنًا فترة، لكن نجية مدت يدها، وأمسكت بصدر الأرنب، وقربته من فمه، لكنه نظر إلى طفليه المحملقين وقال:

- «الأولاد أولاً، ثم أمي».

قالت أمه في حزن:

- «ياما أكلنا وشربنا».

وقالت نجية :

- «نصيب الأولاد هناك» .

تناول قطعة من لحم الأرنب ، مع حفنة من الأرز ، وأخذ يحرك فكيه ، ويلوك الطعام فى وهن وتكاسل ، فجأه توقف عن المضغ ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع وقال :

- «إننى عاجز عن البلع» .

لا أجد أدنى شهية للطعام . . .

خذيه بعيدًا عنى . . أوشك أن أتقيا .

ارتسم الأسى على وجه نجية ، ودق قلبها خوفًا وقلقًا وحسرة ، وعاد عبد الله ليتمدد على الحصير المهترئ المفروش فى باحة الدار ، وأنفاسه تتلاحق ، وبعد لحظات من الهدوء العاصف أخذ يترنم بأغنية شعبية قديمة فى نبرات متقطعة :

يا نفسى كُلى كُلّ أتاك وشُفْتيه

قبل يوم يجيكى الشهد ما تدوقيه

دمعت عيناها وقالت :

- «منذ يومين وأنت لم تأكل أو تشرب شيئًا» .

لم يعلق بشىء ، بل لاذ بالصمت بعد أن أغلق جفنيه ، وراح فيما يشبه النوم ، وحملت نجية الطعام بعيدًا عنه وقلبها يبكى .

في اليوم التالى دخل عبد الله فى غيبوبة الاحتضار أحضروا له قارئ القرآن الكريم فى القرية، حاول الشيخ أن يلقنه الشهادتين، لكن عبد الله كان عاجزاً عن النطق فاكتفى القارئ بتلاوة سورة ياسين وسورة النبأ، وغيرهما من قصار السور، وأسلم عبد الله الروح فى هدوء، شهقت زوجه باكية، وبكى الطفلان لبكائها، أما العجوز فكانت تبكى وتزوم وتهز رأسها بحركات رتيبة مؤثرة. .

كانت الشمس قد توسطت كبد السماء، ورأى قارئ القرآن أنه لا بد من الإعلان عن الوفاة، إذ لم يجتمع أمام البيت غير نفر قليل، وهناك أمور لا بد من ترتيبها لتشييع الفقدان، وجاء أحد الفلاحين الجيران، وأشار بأن يصعد النسوة فوق سطح المنزل ويلولن ويصرخن حتى يعلم الناس، وما أن انبعث صراخ النسوة فى الآفاق حتى انهمر الناس من كل صوب وحدب وهم يتساءلون فى لهفة وروع:

«ماذا جرى؟».

- «مات عبد الله السروجى».

قال أحد الحشاشين:

- «ياه. . افتكرنا حاجة كبيرة. . ».

واستدار وعاد من حين جاء.

أغلب الذين أتوا مذعورين مشدوهين رجعوا . . لكن الذين بقوا من الجيران والأهل والأقارب شكلوا مجموعة تكفى لتشييع الجنازة .

حينما تساءل بعض الناس عن مرض عبد الله السروجى رد حلاق القرية قائلاً :

- «يصعب فى هذا الزمان ، وفى هذه القرية بالذات تشخيص أى مرض . . والسبب فى ذلك أن الأمراض الكثيرة تختلط فى جسم الفلاح . . لكن يظل دائمًا الداء الأساسى هو الفقر . . فقر الدم . . . » .

ويهز قارئ القرآن الأعمى رأسه قائلاً :

- مما روى عن سيدنا الإمام علي قوله :

«لو كان الفقر رجلاً لقتلته..» .

وفى أثناء الانشغال بغسل الميت وتكفينه ، تسللت قطة خبيثة إلى داخل الغرفة الوحيدة المظلمة والتهمت الأرنب الذى تُرِكَ من أمس ، ومع ذلك فقد اتهمت نجية طفليها بأنهما أكلا البقايا ، وقد كانت عازمة على تقديمها لمن قرأوا بضع آيات على روح زوجها الفقيد .

●●●

الرقيق الأبيض

لم يكن يدرى سببًا مقنعًا لتمنعها عليه، ومحاولتها التهرب منه، وعاد بخفى حنين من لقائها، عاد وهو أكثر حنقًا وغيظًا، تمنَّى ساعات الفشل أن يقبض على عنقها ويعتصره اعتصارًا، أن يهشم جمجمتها، أو ينقض عليها كفارس قديم، ويمزقها بسيفه، إن رفضها مصاحبته قد أسكت إلى الأبد صرخات الاحتجاج التى كانت تنبعث فى داخله، كان بالأمس يخاف الله! ويتردد فى اجتياز الحاجز الذى يفصل بين الفضيلة والرذيلة، كان يقول لنفسه: إن لدىّ الزوجة الجميلة، والماضى النظيف، فلماذا الاندفاع خلف امرأة أخرى، وتلويث الصفحة البيضاء؟؟ وكاد أن ينتصر، لكنّ سرًا غامضًا كان يدفعه فى اليوم التالى إلى حيث تجلس «بهيرة».. والصيف فى لبنان منعش.. مثير، ملىء بالمغريات.. لكأنما كل جاذبية لبنان وروعته وإثارته تتركز فى هذه الملعونة «بهيرة».. إنها امرأة من نوع غريب.. هادئة لكنها قاهرة، باسمة غير أن نظراتها تضرب بالسياط، ضحكتها تمزق وقاره وسكونه، الشعر النافر فى

نظام، والبشرة البضة المشربة بالسمرة، والصوت الحنون النافذ، كل ذلك جعله يخطو إليها، ويهمس فى ضراعة:

- «أتقبلين كأسًا وعشاء على مائدتى؟».

قالت وكأنها تعرفه من عشرين سنة:

- «تعشيت، وشربت ما فيه الكفاية الليلة.. أشكرك..».

وبهت لمنطقها الموجز الحاسم، لم يكن يستطع أن يفهم هل تتحايل عليه أم ترفضه، هل أعجبها أم نفرها منظره وتضاءل واندفع الدم إلى وجهه، وحاول أن يتكلم فلم يستطع، دق قلبه دقات سريعة، وكاد يبكى، وأخفى اضطرابه فى حركة سريعة انسحبت به إلى الخلف، وهرول إلى حجرة زميله «سعيد» وهو غارق فى خجله وعرقه، وفى قلبه المهزوم ثورة تحتدم.

ودق الباب، وما أن التقى به حتى صاح:

- «تريد أن تسخر منى يا سعيد؟».

همس سعيد:

- «ماذا جرى؟ إنك تعقد الأمور دائمًا يا عبد العزيز..».

أمسك عبد العزيز برباط عنق صديقه، وجذبه فى غيظ:

- «ألم تزعم أن بهيرة اعجبت بى؟».

- «بلى . . » .

- «ألم تقل أنها تأخذ وتعطى؟؟» .

- «لم أكذب عليك» .

- «لقد رفضت العشاء و . . . » .

وقهقه سعيد :

- «مسكين أنت حديث عهد . . هذه الأمور تحتاج إلى صبر . . والدعارة تجارة . . وفن أيضًا . . والعلاقات الإنسانية أصبح لها بورصة وهى دائمًا تبيع . . هذا هو عملها . . إنها محترفة . . » .

وعاد عبد العزيز يتذكر دقائق ما جرى، الجلسات السابقة، الحوار القصير، الرفض المهذب، الغيظ الذى اشتعل به جسده، ثم ذلك الغيظ الذى أحال تردده الأول، إلى عناد وإصرار على العبث واللهو .

وهتف فى صبر نافذ :

- «اذهب إليها أنت . . إننى أريدها . . » .

- «لست قوّادًا . . » .

- «أيها الملعون . . أنت الذى أغريتنى . . وانتزعتنى من قلب الصحراء إلى هنا . . لا أطيق الرفض ولقد تعودت أن آمر فأطاع . . » .

وعادا إليها معًا ، استقبلتهما بهدوئها الغريب ، وقال سعيد وقد كان قصيراً حاد النظرات :

- «عبد العزيز يرجوك . . إنه حزين . . » .

ضحكت في استهتار مستتر :

- «مسكين . . لكنه مؤدب أزيد من اللزوم . . » .

تدخل عبد العزيز قائلاً :

- «أنا أحترمك . . » .

- ضجت بالضحك وقالت :

- «أكره الكذب» .

- «هذه إهانة . . » .

- «وأنا لن آتى معك . . » .

- «لماذا؟؟» .

- «أنا حرة . . » .

- «لكنى سأدفع أكثر مما يدفعون . . خمسمائة ليرة . . » .

قالت بجد مذهل :

- «ألف . . » .

- شهق سعيد من الدهشة، وهتف عبد العزيز فى تحد:

- «أوافق.. ألف..».

رمته بنظرة جانبية ماكرة وقالت:

- «وأنا أرفض..».

- «كنت تريدنى كامرأة.. والآن تريد أن تحطم كبريائى.. أنت لا تدفع ألف ليرة من أجلى، ولكن لتحفظ غرورك..».

بصق عبد العزيز فى غيظ، وسب ولعن، وأخذت الكلمات تتناثر من فيه دون وعى، وتمتم: «عاملتك بأدب فكان أدبى مأخذًا، وتصرفت معك كبائعة هوى فسخرت منى، أنسيت أن عشرات غيرك يملأن الأندية والبنسيونات؟؟».

وصرخت «بهيرة» فى غيظ:

- «اذهب.. لا أريد أن أراك..».

لوى سعيد شفته السفلى فى حيرة، بينما كور عبد العزيز قبضته فى حقد حارق، وشعر بهزيمة وضياع لم يتعرض لهما طول حياته، وعاد إلى حجرته غاضبًا، وهو يهدد بالسفر الفورى، وترك هذا العالم المجنون اللامعقول، وهاجم صديقه هجومًا شديدًا؛ لأنه كان السبب فى كل ما حدث، وعاد يفكر من جديد فى زوجه وأولاده، وبيته على أطراف المدينة فى الصحراء البعيدة، والحياة

السهلة الخالية من العقد والإغراء والأحزان، وسلطته هناك حيث لا يعترضه معترض، وعاد مرة أخرى يفكر فى الفضيلة وعجب لنفسه كيف يتورط فى الخمر، وينحدر إلى حضيض بائعات الهوى، ويلوث شرفه وكبريائه، وتمتم شاردًا:

- «أعتقد يا سعيد أن ما حدث يشبه المعجزة. .».

- «كيف؟؟».

- «إن الله لا يريد لى أن أسقط».

قال سعيد وهو يبدى عدم اقتناعه:

«هذا زهد العاجزين. .».

أثارته هذه العبارة الموجزة، لا لأنها ترفض منطقه فحسب بل لأنها ألقت ضوء كاشفًا على خبيئة نفسه، عرت نواياه، وفضحت عجزه، وأبانت عن هزيمته، وهو أنانى يرفض خدش كرامته، أو النيل من كبريائه. . وخرجت ضحكة عبد العزيز كالنحيب:

- «إنها أتفه من أن تثير كل تلك الخواطر، أنت خاطئ فى تصوراتك. . والحقيقة أنها لا تعجبنى. . هذا الوعاء القذر. .».

سدد إليه سعيد نظرات متحدية رافضة لمنطقه، فأسرع عبد العزيز إلى سريره واندس فيه. . أطفأ النور لكنه لم ينم. . كانت عيناه مفتوحتين تنظران إلى السقف عبر الظلمة الآثمة، وخياله هناك يحوم

من حولها كالثمرة الشهية . . تتدلى كعناقيد الجنة . . بنات الحور . . الابتسامة التي لا تموت . . السحر الحي الذي يغمر كل شيء، ويسرق الألباب . . النبع الصافي في دنيا من قيظ وظمأ . . النعيم العذرى . . وبهيرة كملكة سبأ تجلس على عرشها الذهبى . . تنظر إلى من أعلى . . أنا أرمقها في اشتهاء . . ونسيت كل شيء . . الماضى والحاضر . . كنت ألعنها وأنا أعانقها في الوهم المرير، وأرفع رأسي في شموخ وروحى تلثم أقدامها البضة، ثم تحوم حول عنقها المتمرد . . لكنه لم يفق من نومه إلا عند الفجر . .

وهتف في صوت واهن :

- «سعيد . . سعيد . . » .

- «ماذا تريد؟؟ إننى لم أنل كفايتى من النوم بعد . . » .

- «ولقد قررت أن أتزوجها . . » .

- «لم تزل الخمر تلعب برأسك . . » .

- «أننى على ثقة مما أقول . . » .

أدار سعيد وجهه إلى الناحية الأخرى وقال في ملل :

- «أنت ساذج . . » .

- «لقد صممت على ذلك» .

- «يا عبد العزيز . . إنها ومثيلاتها لسْنَّ للزواج . . » .

«سأغرقها فى النعيم . . كل دخلى من التجارة سأنفقه عليها . . » .

قال سعيد وهو يتثاءب :

- «هناك حيوانات أليفة وأخرى متوحشة . . » .

- «الأليفة كانت متوحشة فى يوم من الأيام . . فى العصر القديم . . » .

- «اللعنة على كل العصور . . أريد أن أنام . . » .

ثم ضحك سعيد قائلاً :

- «الوعاء القذر؟؟ الفضيلة؟؟ مسكين . . أنت حديث عهد بالعبث . . » .

«آه . . سرعان ما ينتهى الصيف . . ونعود . . ويصبح الصيف فى لبنان مجرد ذكرى . . أو حلم وردى مثير . . نحيا على ذكراه طول العام . . آه . . لست أدرى لماذا خلق الله فى الفساد كل هذا الإغراء والفتنة؟؟» .

وفى الصباح جد عبد العزيز فى البحث عنها فلم يعثر لها على أثر ، وحاول سعيد أن يثنيه عن عزمه جاهداً دون فائدة ، وشرح له أن مثل بهيرة ليس لها مقر ، إنها تنتقل من مكان إلى مكان ، ومن

مدينة إلى أخرى، فهى اليوم فى بيروت، وغداً فى «بحمدون» أو «صوفر» أو «طرابلس»، أو مع أحد الأصدقاء فى مغارة جعيتا أو تعتلى عند قمم الأرز، وضحك سعيد وهو يقول:

إنها كالأريج تنتشر فى الجو دون أن تراه، وهى كالعصفور الطليق يكره الأقفاص ولو كانت من ذهب، وتريد التجديد دائماً، وأنت وأنا أو أى إنسان آخر لن يكون سوى لمحة قصيرة من حياتها الممتلئة العريضة، ومثلها لا يصح أن يتعلق بها إنسان لدرجة الجنون.

تطلع عبد العزيز من الشرفة فى المساء، كان الليل حزيناً قلقاً برغم ما يلتمع فيه من أضواء، ويهدر فيه من ضجة عالية.. وأخذ يتصور أميرة أحلامه تجرى كالجنية فوق الموج، أو تميل كالزهرة فى مرقص ليلى تصخب فيه الموسيقى أو تنقلب على فراش من حرير بين يدى خنزير حقير.. وناء قلبه بأحزان لا نهاية لها، العالم من حوله جديد، والتجربة جديدة، لكن روحه تثقلها الآلام والمرارة، وهو لا يستطيع السفر، ولا يأنس بالبقاء، ويحيا على الانتظار، والتشوق للمستقبل الغامض، وسعيد قد دعاه منذ فترة قصيرة للخروج، لكنه أبى وأصر على البقاء فى الشرفة وحيداً، ولا يريد أن يزعجه أحد.. ولم يكن أمامه سوى أن يمارس اللعبة الجديدة.. لعبة الكؤوس.. فأخذ يشرب.. ويشرب..

وسمع من خلفه صوتًا رقراقًا حلوًا :

- «هأنذا قد أتيت إليك . . » .

ها هى الخمر تلعب برأسه ، وتجسد له الأوهام ، وتزيد من آلامه ، وتضيف أحزانًا على أحزانه .

- «ألا تسمعنى ؟ ؟ أنا بهيرة . . » .

وفكر فى أن ينظر خلفه ، لكنه خجل من نفسه ، ما هذا الهذيان؟؟ .

وارتعد حينما شعر بيدها الناعمة تلامس عنقه من الخلف ، وهب واقفًا ، وقد استدار نحوها . . كان الضوء خافتًا ووجهها الفاتن يضىء بنشوة الربيع ، وروعة الشباب ، ونضارة الجمال .

طوقها بذراعيه ، فتخلصت منه برفق وهى تقول :

- «ألف ليرة أولاً . . كثيرًا ما خدعتنى المظاهر . . » .

هرول إلى الداخل ، ومد حافظة نقوده بكل ما فيها .

قالت فى دهشة :

- «لست فى وعيك . . » .

- «إننى على استعداد أن أبيع عمرى كله بهذه اللحظات . . » .

احتضنته وهى تبكى :

- «أنت إنسان كبير . . » .

- «أتتزوجيننى؟؟».

- «إننى معك هذه الليلة . . لا تفكر فى الغد . . الغد عذاب . . ».

فى اليوم التالى كان سعيد يضرب كفًا بكف، ولم يكن يعبأ بتأثر عبد العزيز وحديثه الجاد، وقال سعيد:

- «تصور ما شئت . . فهى لا تؤخذ بأكثر من خمسين ليرة فى الليلة . . أيها المجنون . . أتعطيها ثلاثة آلاف . . لن أقرضك درهمًا واحدًا».

وسأتركك لصاحب الفندق . . كى يسوقك إلى مخفر الشرطة . . ».

«وجلس عبد العزيز فى انتظارها أسبوعًا كاملاً دون فائدة، لقد ذهبت ولم تعد، اندست فى العالم الكبير عالم المصيف المكتظ بمئات الألوف من البشر الذين جاءوا طلبًا للتغيير، وهروبًا من المال وبحثًا عن المتعة فى محاولة للنسيان . . ».

«وأعد عبد العزيز حقائبه، وانسل خفية إلى المطار، إن نار أغسطس هناك . . فى قلب الصحراء أنقى وأطهر . . كان لابد أن أفيق وإلا ضعت إلى الأبد . . نحن نجرى بحثًا عن السعادة فى كل مكان . . عن النشوة . . والحب والجمال . . وعميت عيوننا عن أن السعادة ومترادفاتها ليست على الأرض . . أو فى أسواق الرقيق الأبيض . . إنها هنا . . قريبة جدًا . . فى قلب الإنسان . . ».

الدليل التائه

(١)

كانت القاهرة تبدو لخياله كالجنة الموعودة لأمثاله من الموهوبين، ففيها ستتألق مقدرته الفنية، وتشرق عبقريته الخلاّقة، ويصبح أديبًا من ألمع الأدباء، تتهافت الصحف على نشر قصصه، وتتسابق إليها دور النشر كما تحظى بشرف انتمائه إليها، ولِمَ لا؟؟ ألا يملك ناصية الأسلوب والأفكار الجيدة التى يعتقد أن لها صدى عميقًا فى نفوس القراء؟؟ لم يكن يعترف قط أنه أديب من الدرجة الرابعة أو الخامسة؛ لأنه يعيش فى الصعيد الأوسط وسط مجموعات من عمال السكة الحديد، هو أطلقهم لسانًا، وأنصحهم بيانًا، وأكثرهم إلمامًا بأمور الحياة والسياسة والفن.. إنه لا ينكر أنه أرسل بعض إنتاجه الفنى لبعض الصحف والمجلات، ويعترف أنهم لم يهتموا بإنتاجه بدليل عدم نشره، لكنه كان يعزو ذلك إلى عدم المعرفة الشخصية، وإلى اقتصار الصحف والمجلات على كتّابها وعلى الأسماء اللامعة وحدها.. وذات مساء عاد الأستاذ «محمد

البكرى» إلى زوجه ساهمًا، ثم أشعل سيجارة، وأخذ يجذب أنفاسها فى صمت، كانت طفلته «رجاء» فى الخامسة من عمرها وديعة رقيقة وسيمة التقاطيع، وكان ولده إبراهيم فى الرابعة عشرة من عمره.. يبدو عليه الهدوء نحيلاً شاحبًا.. لا تكاد تسمع له صوتًا وهو يذاكر.. وتوسط الأب أسرته الصغيرة، ثم قال:

- «لسوف نرحل فى أقرب وقت..».

نظرت إليه زوجه، وهى امرأة من ريف أسيوط لم تتلق أى قسط من التعليم، يبدو عليها لأول وهلة أنها من ذلك النوع من النساء اللاتى لا تتركهن أعراض مرض مبهم فى أغلب الأحيان.. وهمست:

- «إلى أين؟؟».

- «سنترك أسيوط إلى الأبد..».

- «مستحيل.. إننا نعيش فى يسر.. ومرتبك يكاد يكفينا.. وأنت مستريح فى عملك، نحن مبسوطون فماذا تريد غير ذلك؟؟».

انتابته فورة حماسية دافقة، ولوح بيده فى إصرار كأنه يريد أن يهزم نوازع التردد فيه:

- «سأذهب إلى مصر بحثًا عن المجد..».

هتفت فى حيرة:

- «المجد؟؟» .

لم تكن تدرك لهذه الكلمة معنى محددًا، لكن زوجها يعرف بالتأكيد ما هو المجد؛ لأنه متعلم نال الشهادة الابتدائية، ويعرف بعض الكلمات الإفرنجية، ويقرأ الصحف، ويلبس بدلة ورباط عنق وطربوشًا، وعنده عدد كبير من الكتب، ولا يفتأ من آن لآخر يسود صفحات كثيرة يسميها أدبًا ثم استطردت تقول :

- «نحن مستورون، ولسنا فى حاجة إلى آى شىء آخر» .

وقال وهو يبتسم فى سخرية :

- «المجد ليس طعامًا وشرابًا يا جاهلة . .» .

- «فماذا يكون إذن؟؟» .

- «إنه الشهرة . . النجاح . . الثراء العريض . . الحياة الرائعة . . المجد أن يؤمن بك الناس ويرونك مثالاً للعظمة . . ويكتبون إليك رسائل الإعجاب، ويعرضون عليك مشاكلهم ويظنون أن لديك رأيًا وحلاً لكل الأمور المعقدة . . المجد شىء عظيم لا يمكن وضع تعريف محدد له . .» .

أدارت رأسها، لم تفهم كثيرًا مما يقول، أولاده أخذوا ينظرون مبهوتين، لكنّ مصر وما يسمعونه عنها من حكايات وأوصاف قد سرت لهم، فابتسموا فى سعادة، وعادت الأم تقول :

- «إن سألتنى رأيى فإنى أفضل هذه الحياة البسيطة التى نعيشها فى قناعة وسلام . . ».

هز رأسه فى ضيق وقال :

- «أنت مشكلة من المشاكل، كنت واثقًا أن هذا الزواج الذى فرضه أبى على رحمه الله هو النكبة الكبرى، إن مستواك الثقافى والفكرى دونى بكثير . . لم تفهمينى فى يوم من الأيام، ولن تستطيعى اللحاق بى مطلقًا . . ليست بيننا أية مشاركة وجدانية . . ».

اغرورقت عيناها بالدموع، قد يكون كلامه غامضًا، لكنها تفهم أنه ساخط على حظه لزواجه منها، وأنه نادم على هذا الزواج، وقالت بصوت يحشرجه البكاء :

- «لم أقصر فى حقك ولا فى حق أولادك . . إننى خادمتك، خادمة أولادك أعتبرك دائمًا سيدى . . لا أفكر إلا فيكم، لا أتعب إلا من أجلكم . . بيتك منظم وملىء بالخيرات . . رفعت رأسك فى كل مناسبة، فماذا كنت تنتظر بعد ذلك؟؟».

تنهد فى حسرة وقال :

- «لقد فات وقت التحسر والعتاب . . ومع ذلك فلتطمئنى . . إن رجلاً مثلى فى الأربعين من عمره لا تشغله النساء بقدر ما يشغله المجد الذى يحلم به . . ».

أخذت تجفف دموعها وهى تمتم :

- «سامحك الله . . ألا أليق بك؟؟» .

ربت على كتفها فى حنان وقال :

- «لا يصح أن يظل رجل عظيم مثلى مجهولاً . . البلد فى حاجة إلىّ . . إن ما أكتبه أروع بكثير مما يكتبه عشرات الكتّاب فى الصحف والمجلات . . ليس هذا غروراً ، ولكنه الحقيقة يا أم إبراهيم . . لا تقلقى . . اتركى الأمر لى ، وسترين أن زوجك لا يفعل إلا ما فيه مصلحتك ومصلحة أولادك . . لن يمر عام واحد حتى تجدى نفسك تعيشين فى شقة فاخرة ، مفروشة بغالى الرياش ، وإلى جوارك تليفون . . وخادم . . وعلى جسدك ملابس ثمينة . . » .

وشرد ببصره إلى بعيد ، وقد ارتسمت على ثغره ابتسامة عامرة ، وأخذ يقول كالحالم :

- «وسيكون اسم محمد البكرى على كل لسان . . سترينه مكتوبًا على الأفلام السينمائية وستسمعينه فى الإذاعة . . وسيكتب النقاد عنه كثيراً . . وسيصبح كبار الفنانين والأدباء أصدقاء له . . » .

ثم صحا من أحلامه فجأة وصاح :

- «مستحيل أن أظل نكرة فى «ورش السكة الحديد» يتحكم فىّ «ملاحظ» غبى ، ويحاسبنى على مواعيد الحضور

والانصراف، ويتوعدنى بالعقاب إذا ما قصرت . . هؤلاء الأغبياء لا يعرفون من أنا . . لا يفهمون شيئًا عن الفن والأدب . . أنا - بينهم- مجرد فرد مثل مئات الأفراد هناك . . لا شيء يميزنى فى نظرهم لسوف أتركهم ملعونين . . سأحتقرهم . . لن أقدم لهم استقالتى . . سأترك العمل وأمضى فى طريقى إلى القاهرة، سنبيع الفدانين الذين نمتلكهما . . سيكون معنا ألف وخمسمائة جنيه . . ».

ودقت على صدرها :

- «تترك العمل؟؟ وتبيع الأرض؟؟ يا للكارثة!!».

- «هذا هو قرارى النهائى . . ».

- ولماذا لا تترك الأرض . . إنها مأوانا الأخير . . قد نعود إليها فى يوم من الأيام فتجود علينا بالرزق . . أستحلفك الله أن تفكر من جديد . . تستطيع أن تطلب نقلك إلى القاهرة، وبهذا لا تخسر وظيفتك ولا أرضك . . وبالتالى تبحث عن المجد الذى تتحدث عنه آمنًا مطمئنًا . . ».

قال وهو يزئر ويزمجر :

- «لقد عشت جبانًا طوال حياتى . . لسوف أتحرر من الخوف . . سأغامر، المجد لا يأتى بدون مغامرة . . ».

اختطفت يده دون أن يشعر، ثم أغرقتها بدموعها وأخذت تقبلها فى حرارة، وتضرع إليه ألا يترك عمله، أو يبيع أرضه. . أرض أبيه. . فسحب يده فى جفاف وقال:

- «لكنى سأرحل إلى القاهرة. . وسأبيع الأرض. . ولك الخيار فى أن تصحبينى أو تبقى هنا. . هيه. . ماذا قلت؟؟».

نهضت واقفة، والدموع تغرق خديها، وهمست:

- «أمرك. .».

●●●

(٢)

فى حى «شبرا»، فى حارة مكتظة بالبشر وجد مسكنًا لا يفى بأحلامه الكبيرة، وكان عزاءه أن مقامه فى مثل هذا المكان الحقير الممتلئ بالضجيج والحركة لن يطول، فعندما يجد الثغرة التى يطل منها على المجد. . على جنته الموعودة. . فلسوف ينتقل إلى حىّ راق. . كالزمالك أو المعادى أو مصر الجديدة. . وظل محمد البكرى شهوراً ثلاثة يكتب، ويتردد على دور الصحف والمجلات عارضًا إنتاجه الغزير. . وعاد ذات مساء مرهقًا مكدودًا، ثم ألقى بجسده المتعب على «كنبة» عتيقة، كان يرغب رغبة جارفة فى النوم. . لكن قلقه جعله يتأرجح بين اليقظة والنوم، ومشاهد عدة

تتـواتر على ذهنه المرهق . . إن المحـرر الأدبى لإحـدى الصـحف استقبله متضجراً . . كان يضحك من لهجته الصعيدية ، ويقول : «أنت قصاص؟؟ يا رجل دعك من هذا الكلام . . القصص أكثر من الهم على القلب . . ابحث لك عن عمل آخر تأكل منه عيشًا . . إن فى جريدتنا ما يربو على عشرين قصّاصًا . . والذين يجدون الفرصة للنشر فيهم اثنان أو ثلاثة . . إن لم يكن لك عمل آخر غير الأدب فلتبشر بالإفلاس . . » ، وعندما طلب منه محمد أن يقرأ إحدى قصصه قرأها فى ضيق ، ثم قال : «طريقتك قديمة جداً . . إنك تكتب على نمط ألف ليلة وليلة وإن كنت تتناول موضوعات عصرية . . ويبدو أنك تقرأ كثيراً فى قواميس اللغة . . لا تنس يا أستاذ أنك فى منتصف القرن العشرين . ألم تقرأ عن سارتر وجويس وفرجينيا وولف وتشيكوف؟؟» أسماء لم يسمع بها من قبل . . لعله قرأها عرضًا ، فلم تعلق بذاكرته . . كان محمد يعتقد أنه يكتب شيئًا جديراً بالبقاء . . ومن ثم فلا لوم عليه إن لم يعرف مثل هذه الأسماء الإفرنجية . . لهذا تمنى محمد أثناء ذلك أن يصفع المحرر الأدبى على وجهه ، أن يرميه بالجهل والحماقة . . لكنه نهض من فوق مقعده ، وشكره وانصرف . . إن رجلاً مغروراً كهذا المحرر لا يصح أن يزعزع ثقته بنفسه . . والمدينة فيها الكثير من الصحف والمجلات فليذهب إلى مكان آخر . . ها هو يلتقى بمحرر آخر فى مجلة كان يحرص على قراءتها ويراسلها وكثيراً ما كانت تنشر

رسائله واسمه وعنوانه . . وتحدث «محمد البكرى» معه طالبًا منه إتاحة الفرصة له كى يجد عملاً بالمجلة، أو يسمح له بالنشر فيها . . تململ المحرر فى مقعده، وقال فى برود لا يتفق والصورة التى استكنت فى رأس محمد عن الفنان الحقيقى : «يا سيد محمد القسم الأدبى فى انكماش . . إن الإعلانات تطغى على الحيز المحدود لنا . . تصور . . كثيرًا ما نلغى القصة أو القصيدة أو مقال النقد لنضع إعلانًا حتى لا تتدهور ميزانية المجلة . . ثم لا تنس أن الكاتب يأخذ . . أما المعلن فيعطى . . »، قال محمد فى براءة : «لكن الأدب ليس سلعة» . . ضحك المحرر وقال : «لابد أن يكون سلعة فى بعض نواحيه . . فالقصة الناجحة تؤدى إلى رواج فى المجلة . . والكاتب غير المقبول وإن كان فصيحًا بليغًا وصاحب مبدأ سيؤدى بنا إلى الإفلاس وإلى تشريد عشرات المحررين . . أتفهمنى؟؟ ومع ذلك تستطيع أن تترك قصة أو قصتين عندى من باب الاحتياط، دون وعد أكيد بنشرهما . . أما الوظيفة فلا أعتقد . . لا توجد أماكن خالية . . »، ولم يبق إلا أن يذهب إلى إحدى دور النشر، فبدأ بأكبرها وأشهرها، وانتهى بأصغرها . . هو لا ينسى يوم أن التقى بأحد الناشرين وقدم إليه مجموعة من القصص التى يؤمن بامتيازها، وبعد مناقشة طويلة قال له الناشر :

- «لا يهمنى ما تكتب . . ولكنه يهمنى أولاً من أنت» .

- «ماذا تعنى؟؟» .

- «هل اسمك مشهور معروف؟» .

- «إن ما أقدمه لك عمل جيد . . وعلى أثره ستأتى الشهرة . . »

- «دار النشر- بالنسبة لى- ليست حقل تجارب . . إننى أتاجر بالأسماء المعروفة وحدها لأنها «ماركة» مضمونة اعذرنى لو لم أفعل ذلك لأفلست» .

هتف محمد فى استنكار :

- «تتاجر؟؟» .

- «أجل» .

- «فى الفكر؟؟» .

- الفكر . . البطيخ . . مواد البناء . . كله سيان . . على كل حال يجب أن تفهم أن عقلية الناشر غير عقلية المؤلف» .

ثم ضحك فى سخرية وقال :

- «يا عم . . أنا لست فنانًا وإلا أغلقت مكتبى منذ زمن بعيد» .

وشعر محمد فى هذه اللحظة برغبة جادة فى أن يبصق فى وجهه ، لكنه تمالك أعصابه وأزمع على الرحيل ، وجاءه صوت الناشر مجاملاً :

- «ومع ذلك تستطيع أن نترك المجموعة لدى بعض الوقت لفحصها بمعرفة المستشار الفنى . . على ألا تعتبر هذا وعدًا أو ارتباطًا . . » .

لم يزل محمد مضطجعًا على «الكنبة» بين اليقظة والمنام، مغلق العينين، لم يزل بينه وبين المجد الذى يحلم به آماد وآماد، لم يتقدم خطوة واحدة منذ أن قدم من أسيوط، لم يفعل سوى أن أدخل أولاده المدارس، وعثر على مسكنه، يعيش كالغريب الضائع الذليل، وثمن الأرض التى باعها يتناقص من يوم لآخر . . لكن الأمل لم يمت فى قلبه . . وهزته زوجه فى رفق :

- «ألن تتناول طعام العشاء؟» .

- «ليس لدى أدنى رغبة» .

وفجأة قال :

- «ما رأيك فى مصر يا أم إبراهيم؟؟» .

- «مثل الأرض الخراب . . . » .

نهض من مكانه ضاحكًا وهتف :

- «هذا عنوان قصيدة لشاعر عظيم اسمه «ت . س . إليوت» شخصية جديدة عرفتها منذ أن دأبت- بعد وصولى إلى القاهرة- على حفظ الأسماء اللامعة فى الأدب العالمى . . كم أنت عبقرية يا

زوجتى . . تفكرين كما يفكر إليوت ، من يصدق ذلك؟؟ لسوف أكتب قصة جديدة عنوانها «زوجتى . . والأرض الخراب» .

لم تعر كلامه التفاتًا يذكر ، فكثيراً ما يصعب عليها فهم معانيه ، لكنها قالت :

- «ليس لنا هنا أهل ولا معارف ولا أحباب . . ما أجمل أيام أسيوط ! !» .

وبعد فترة صمت قالت :

- «أراك متكدرًا؟؟ لم تعثر على المجد الذى تبحث عنه؟» .

- «سأعثر عليه . .» .

- «متى؟؟ بعد أن ينفذ ما معنا من مال؟؟» .

ثار فى وجهها قائلاً :

- «ألا تفكرين إلا فى المال؟؟ أنت لا تفترقين فى تفكريك عن الناشرين وأصحاب المجلات . . غبية مثلهم تمامًا . . يجب أن تعلمى أن الفقر مدرسة النبوغ . . وأن عظماء الفنانين عاشوا تعساء مظلومين متألمين . . ألم تسمعى عن الألم العبقرى؟؟ نحن فى عصر انحلال ، الفساد والرشوة فى كل مكان . . لو كنت لى صلة بباشا أو بك أو صاحب منصب كبير فى «القصر» لبلغت المجد من أوسع أبوابه . . لكن للأسف . . كفاءتى وحدها مثل «القطار القشاش» .

– «يصل متأخراً ثلاث أو أربع ساعات . . » .

تنهدت فى حسرة قائلة :

– «ليت أيام القطارات تعود ! !» .

– «يا مجنونة . . ماذا يزعجك . . » .

– «الخوف . . القلق . . يا محمد . . » .

– «معنا ما يكفينا لمدة عامين» .

– «وبعد العامين يا محمد؟؟» .

– «يفرجها ربنا . . » .

– «أولادنا يا محمد» .

– «ما لهم ؟؟» .

– «مستقبلهم مهدد» .

وأزعجته كلمة «أولادنا» إن من عنده أولاد من الصعب عليه أن يغامر فى هذا العالم المجنون الظالم ، لو ساءته الأحوال– لا قدر الله– ونفذت النقود ، فسيتعذب الأولاد ، والأولاد لن تسد جوعتهم القصص الكثيرة التى يكتبها دون فائدة . . سيتشردون . . لكنه دفع عن نفسه تلك الخواطر السوداء فى عنف وقال :

– «سأعد تمثيلية إذاعية وأذهب بها إلى الإذاعة غداً . . » .

- «شد حيلك يا سى محمد . . أنا خائفة . . » .

ووجد فى اليوم التالى مبنى ضخمًا ، هناك ناس كثيرون ، حجرات ومكاتب . . وسعادة . . وزوار نساء ورجالاً ، أين يذهب؟؟ قصد لتوه مكتب الاستعلامات ، وسأله الموظف المختص :

- «ماذا تريد؟؟» .

- «معى تمثيلية إذاعية . . » .

- «لمن تريد أن تسلمها» .

- «لا أعرف أحدًا هنا» .

قال الموظف فى سخرية :

- «خلاص . . اذهب بها إلى المدير شخصيًا» .

- «أين هو؟؟» .

- «سل عنه تجده . . » .

كان قلبه يدق وهو يطرق باب المدير ، شعر بشىء من الخزى والذلة ، إنها مشاعر لا تتفق وكرامة «الفنان العظيم» . . لكنه يجب أن يحتمل . . ألم يقولوا إن الحياء يمنع الرزق . . كانت ساقاه تعجزان عن حمله وهو يقف أمام المدير . . وعندما عبر عن مقصده بكلمات متعثرة متلعثمة قال المدير :

- «اذهب بها إلى لجنة النصوص».

وهرول باحثًا عن لجنة النصوص.. تلك اللجنة التى تقترن فى ذهنه بمجلس القضاء الموقر، وأخذ يسأل ويبحث، والتقى بأحد الشباب الناشئين:

- «أنا ذاهب إلى هناك.. تعال معى..».

ثم استطرد الشاب:

- «أتعرف أحدًا من أعضاء اللجنة أو المخرجين».

- «لا...».

- «إذن فمصيرك سلة المهملات..».

ودخل حجرة اللجنة فلم يجد غير واحد.. أين المجلس الموقر؟؟ لم يرحب به أحد، تناول الرجل منه تمثيليته، ثم ألقى بها على المكتب فوق كومة من الأوراق، وابتسم محمد ابتسامة بلهاء وقال:

- «متى ستذيعونها إن شاء الله».

نظر إليه الرجل فى استغراب وقال:

- «مر علينا بعد أربعة أشهر».

- «هذا كثير».

- «عندنا تلال من النصوص يا حضرة.. إذن فلتمر علينا بعد خمسة شهور».

خرج محمد يتخبط كسكران دلف إلى شارع جانبى، ثم تجول، دون هدف فى ميدان «باب اللوق» وانحرف صوب «ميدان قصر النيل»، المذياع يذيع الأغانى العاطفية.. ثم موسيقى السلام الملكى ونشرة الأخبار.. ووثبت إلى ذهنه فكرة حلوة.. تمثيلية السهرة.. كتبها محمد البكرى ويخرجها.. «فلان» وفى أسيوط سيسمع العمال.. ومعهم الملاحظ اسمه يتردد فى الآفاق.

بعد شهور قليلة.. إنه يعالج فى تمثيلية قضية مهمة.. كرامة الإنسان.. إهدار الكفاءات.. إنه يعالجها هذه المرة بأسلوب سهل سلس.. ليس أسلوب القواميس وألف ليلة، وإن كانوا يذيعون فى بعض الأحايين مقتطفات من ألف ليلة.. عند ذلك ستعلم أم إبراهيم ما هو المجد.. وسيعلو البشر وجه إبراهيم ورجاء.. وسيعرف الجيران وأهل الحارة مَنْ هو «محمد البكرى».. آه لقد نسى شيئًا مهمًا إنه لم يقتن «راديو» حتى الآن.. بسيطة.. إن فى محل الحلاقة المجاور متسع للجميع.

الأيام تمر والألم العبقرى- كما يقول محمد البكرى- يستشرى، وينتظر الصحف والمجلات والإذاعة دون جدوى، ويحلم باليوم الذى يسمع فيه اسمه يتردد على لسان المذيع، أو يراه على رأس قصة ذات لوحة بريشة رسام كبير.. لكن أحلامه ترتطم بالحقيقة المرة... بالواقع الأليم.. ما أحلى أيامك يا أسيوط!!

لكن لا . . مستحيل أن تكون زوجه أصوب رأيًا منه، ومستحيل أن يدع اليأس يتسرب إلى قلبه . . قلب الفنان . . فمع الصبر يأتى النصر، والكفاءات لا بد أن تفرض نفسها فرضًا، ويثب محمد من سريره ذات مساء عند منتصف الليل، ويصرخ:

- «لقد وجدتها».

وتنظر إليه زوجه والنوم عالق بأهدابها:

- «أتحلم؟؟».

- «يا جاهلة . . بعد تفكير عميق عرفت السر».

- «كلامك كالألغاز . .».

- «لن يأخذ بيدى أحد . . وآراء الآخرين لا توصلنى للمجد الذى أريد . . إن عالم الفن ممتلئ بالأحقاد والأغراض الشخصية . ما داموا لا يقبلون إلا المشهورين حتى لكأن العباقرة كلهم ولدوا مشهورين - فأكون كما يريدون . .».

قالت زوجه فى ملل:

- «كيف؟؟».

- «سأنشئ دارًا للنشر».

- «ماذا؟؟؟».

- «أجل سأطبع مؤلفاتى . . وأسلمها لدور الصحف الكبرى للتوزيع . . وسأعلن عنها بطريقة مثيرة . . قد تكلفنى الكثير فى بداية الأمر . . لكننا سنكسب ذهبًا . . وسنحصل على ما نريد . . على المجد . . » .

قالت وقد رجف قلبها :

- «هل سيكلفك هذا المشروع كثيراً . . » .

- «سأضع فيه جل مالى» .

دقت على صدرها فى رعب وقالت :

- «يا خبر اسود ! ! » .

- «ماذا جرى لك يا امرأة؟ ؟ » .

- «وإبراهيم؟ ؟ ورجاء؟ ؟ وأنت وأنا؟ ؟ كيف نعيش؟ ؟ » .

- «من الإيراد يا مجنونة . . » .

عضت على شفتها فى غيظ وقالت :

- «محمد» .

- «نعم» .

- «اعقل» .

ورنت صفعة قوية على وجهها، فوضعت يدها وكانت الصفعة! وتركت دموعها تسيل فى صمت، ولم تحاول أن تتكلم، بينما عاد محمد يقول:

- «أعرف أنك سبب نحسى، يزعمون بأن وراء كل عظيم امرأة.. عندما أنظر إلى وجهك القذر أتيقن أنه وراء كل رجل منحوس امرأة مثلك.. كنت أريدك زوجة حقيقة تشاركيننى فى كفاحى، وتمسحين عرق جبينى، وتلهميننى الصبر حتى نبلغ النجاح.. أنت أنانية صرفة لا تفكرين إلا فى المال وفى الرغيف.. يجب أن تعلمى أنه لا تستطيع قوة فى الوجود أن تمنعنى من إنشاء دار الفكر التحررى للطباعة والنشر والتوزيع.. وأقسم أننى لن أنشر لأحد من المشاهير كتبًا.. سأختار الكفاءات التعسة أمثالى.. وسأثبت للمملكة المصرية ورجالها أن الفن الحقيقى سيعيش دون وساطات لكن لماذا أقول لك هذا الكلام.. لن تفهمنى كلمة واحدة منه..».

وظل محمد بضعة أسابيع يعد العدة، ويستأجر مكتبة، ويجلب لها الأثاث المناسب، ويشترى بعض «رزم الورق» ويتعاقد مع المطبعة، وكان أول كتاب يقوم بنشره من تأليفه هو عبارة عن رواية فيها جانب كبير من حياته الشخصية، ولم ينس أن يكتب لها مقدمة ويشير فى مقدمته إلى صيغة الفن، وتحيز النقاد، وخيانة أصحاب دون النشر والصحف والمجلات، ويعاهد القراء والأدباء أن تكون

«دار الفكر التحررى» فى خدمة الفن الحقيقى . . وكانت النتيجة أن أتى المشروع والكتاب الأول على معظم ما فى جيبة من مال ، كان يعيش على أعصابه فى انتظار النتيجة التى ستحدد مصيره ، لم يكن ينام الليل ، أو يهنأ بطعام ، وهو يشرف على طبع الكتاب وتغليفه وتسليكه ، وتوزيعه على دور التوزيع . . كان يمر فى الشوراع سائلاً باعة الصحف ، ويرسل الخطابات لأصدقائه فى أسيوط ليخبرهم عن كتابه ، ولم يقصر فى حملة الإعلانات التى قام بها ، وفى النهاية كاد يصعق وهو يراجع أرقام التوزيع .

وصرخ فى وجه المندوب :

- «مائة وتسعة وأربعون نسخة فقط؟؟ معنى ذلك أنك لم تحصل سوى خمسة عشر جنيهًا!! مستحيل» .

ومشى فى الشارع مذهولاً .

نفير العربات ينطلق مزعجًا من حوله .

باعة الصحف يصحبون دون اكتراث ويمطون أصواتهم . . والمذياع لم يزل يترنم بالأغانى العاطفية .

والأولاد- أولاده- ينتظرون . . لهم مستقبل . . يجب أن يأكلوا ويتعلموا . . ويعيشوا الحياة بحق . . لا ذنب لهم . . وعندما دخل الشقة الضيقة انفجر باكيًا كطفل . .

هرولت زوجه تربت على ظهره فى حنان :

- «خير يا محمد . . » .

- «لقد انتهيت» .

- «لم تسمع كلامى» .

وأمسك ذراعها فى عنف وهزها قائلاً :

- «لم أكن أعرف ما أريد» .

قالت شاحبة ذاهلة :

- «كنت تريد المجد . . » .

- «أنت لا تفهمين . . أنا لم أكن أعرف ماذا يجب أن أقول للناس ، وما هى الطريقة التى يتقبلونها . . إن كتابى الأول عن حياتى التافهة الحقيرة . . عن قصة سخيفة لا معنى لها . . لم أعط شيئًا . . إن الوهم قضى علىّ . . لم أكن صاحب مبدأ . . لم أدرك ذلك دفعة واحدة . . كان يتسلل إلى ذهنى طول فشلى كخيوط ضئيلة . . ضئيلة من النور . . لم يتجمع فى قلبى إلا بعد فوات الأوان . . بعد أن أفلست . . لو كنت صاحب رسالة حقيقة لوجدت العزاء . المجد وحده هو الذى كان يشغل بالى . . والمجد- كما تخيله- هو الشهرة والمال» .

وأخذ يجفف دموعه، ونظر بعينه المحتقنتين إلى رجاء الصغيرة، وإلى إبراهيم. . وإلى زوجه الشاحبة المريضة، ففاضت نفسه بمزيد من الألم، ثم همس:

- «لا تحزنوا. . لسوف أبحث عن عمل غدًا. . أى عمل. . لى صديق بورش السكة الحديد بالعباسية، فقد يعيد إلىّ وظيفتى هنا لا فى أسيوط. . وبعد أن أتسلم عملى سأفكر من جديد. . سأحاول الكتابة من خلال مبدأ. .».

قالت زوجه:

- «هذا تصرف طيب. . كثيراً ما كنت أشك فى المجد الذى تبحث عنه. . أنا لا أعرف شيئًا عن المجد. . ولكنى أعرف أن الرجل لا بد أن يكون له عمل. . ولا مانع بعد ذلك من أن تكتب. . وتتكلم عن الفن والأدب والمجد كما تشاء. .».

وفى صبيحة اليوم التالى كان يتخذ سمته صوب ورش السكة الحديد بالعباسية ودعاء من أعماقه ينطلق صوب السماء «يا رب. . من أجل رجاء وإبراهيم والمسكينة الطيبة أمهما. .».



الإنسان.. والآلة

أثارت «قدرية» بتصرفها الأخير موجه من الدهشة والاستغراب، زملاؤها من الرجال ضربوا كفًا، وقالوا: «مستحيل أن يحدث ذلك»، وصديقاتها من الفتيات الجميلات أقسمن أنها بلهاء بلا شك فى ذلك. أما أهل بيتها فقد قالوا بلسان أخيها الأكبر. . قدرية يحلو لها العبث والتغرير بالرجال، وهو أمر يؤسف له، ونحن لسنا بمجانين حتى نصدق أنها قد اختارت المهندس «أحمد عزت» دون غيره من الشبان، إنه أبله ساذج. . قد يكون عبقريًا فى علمه ونفسه لكنه ليس رجل مجتمع بأى حال من الأحوال. .

وكانت أمها تميل إلى هذا القول، غير أنها هزت كتفها فى حيرة ثم قالت: «من يدرى؟؟ لعلها مصيبة فيما فعلت، فالحق أن «أحمد عزت» خير من تقدم طالبًا يدها من حيث المركز الأدبى والمالى. ولم يكن أحد من المقربين إليها بقادر أن يضع تفسيرًا صحيحًا مقنعًا لما حدث، أما «أحمد عزت» فقد بدا للجميع أنه يعيش فى عالم آخر يتصرف فى بعض الأحيان كمجنون يجلس فى بعض الليالى وسط

رفاقه المهندسين فى «جراند أوتيل» بأسوان ليرفه عن نفسه من أعباء العمل الشاقة فوق الجبل حيث بناء السد العالى، هم يتحدثون عن آمالهم وأحلامهم. . عن المستقبل والحب. . والحياة الجميلة. . أما هو فيندفع قائلاً:

- «إنها تحيرنى. . تارة تلين وترقد» حتى يخيل إلى أن مشكلتها قد حلّت. . وأصبحت فى يدى طائعة فإذا بها قد انقلبت فجأة إلى مخلوق شرس. . إلى شيطان عنيد فأربت عليها فىَ حنان، وأمسح عن جبينها الصدأ، وأتحسس كل جزء فيها باحثًا عن نقطة الضعف. . إنها اللغز الذى يعذبنى. . لكن حتمًا سأعرفه. . وعندما أضع يدى عليه سينتهى الشقاء الذى أعانيه. . ».

فيصيح أحد رفاقه المهندسين:

- «مَنْ هى؟؟».

فلا يعيره التفاتًا. . ويستطرد فى حديثه كالحالم.

- «وسينشر أروع قصة حب. . وسيرتبط أسمى باسمها إلى الأبد تصوروا إنها لا تفارقنى. . صورتها تتبدى لى حتى فى أحلامى. . ».

فيهتف زميل آخر:

- آه أيها اللئيم من كان يصدق أن يصل بك الحب لهذه الدرجة من الهوس والجنون، فيهز أحمد رأسه ويردف:

- إنها العقدة المستعصية . . وعندما أصل إلى حلها سيكون كل شيء رائعًا جميلاً في عيني . ويعلق أحد الجالسين :

- «طبعًا . . قدرية ملكة جمال . . لماذا أيها المسكين تورطت في حبها؟؟ من تواضع لله رفعه يا باشمهندس . . أولاد الحلال غيرها كثيرون . .» .

ويدور أحمد بعينيه متفهمًا الجالسين ، ويفيق إلى نفسه ، ويهتف :

- «قدرية؟! لا أقصدها بالطبع . .» .

- «عمن تتحدث إذن؟؟» .

- «عنها عن الآله . . عن الخرامة التي تنحت الصخر ، وتصاب بالتلف من آن لآخر . . إنها تضيع كثيراً من الوقت والمال . .» .

فيضج الجميع بالضحك ، ويقذفونه بالنكات والتعليقات اللاذعة ، ويسخرون منه ومن أحلامه مُرّ السخرية ، ويقولون تباعًا :

- «أنت مخك مخروم . .» .

- «طريقتك في التفكير هي التي تحتاج لإصلاح . .» .

- «صواميل عقلك صدأت . .» .

- فيبتسم «أحمد عزت» ابتسامة ساذجة ويقول :

- «صدقوني إن إضافات بسيطة إلى هذه الآلة ، وتغير بعض

أجزائها، سيعطينا نموذجًا عظيمًا لآلة متينة. . وبهذا ينتهى الكسر والتعطل، وتنتهى العملية قبل موعدها المقرر. . ».

فيقول زميل له:

- «إنها مستوردة يا باشمهندس. . أتعرف معنى مستورد يعنى لها خبراء من الأجانب فلا أنت ولا أمهر منك يستطيع أن يبدل منها مسمارًا واحدًا. . ».

ثم يقلب كفيه، ويلوى شفته السفلى ويقول:

- «غريبة. . لست أرى كيف اختارتك قدرية؟! لا شك أنها مجنونة مثلك والطيور على أشكالها تقع. . ».

وتقبل «قدرية» السمراء الفاتنة، ذات العشرين ربيعًا، وهى مدرسة بإحدى مدارس البنات الإعدادية بأسوان، وتبتسم فى مرح وتقول:

- «طاب مساؤكم». .

فيتسابقون إلى تحيتها، ومصافحتها فى احترام وخشوع، وعيونهم الجائعة تكاد تلتهمها التهامًا بينما ينظر «أحمد عزت» إلى وجهها فى تبتل، ثم يفرك يديه فى توتر، ويهمس فى مرح صبيانى لا ظل للكذب أو الرياء فيه:

- «قدرية؟؟ كنت أنتظرك على أحر من الجمر. . ».

فيرد أحد الخبثاء :

- «لا تصدقيه ، لقد مضى الوقت كله يتغزل فى الخرامة التى يحلم بتصليحها . . » .

- «لم أفكر إلا فيك يا قدرية . . أنت تعلمين . . » .

لم يبد على وجهها الفاتن الارتياح . . وهى تلمح السخرية فى كلماتهم ، وتشهد سذاجته الطاهرة على وجهه وفى حركاته ، لكنها أخفت ما يعتلج فى قلبها من مشاعر متضاربة ، وقالت بطريقة قاطعة :

- «أشكركم . . أنا أعرف أحمد أكثر مما تعرفونه» .

ثم التفتت إليه قائلة :

- «هيا أحمد . . » .

وصحبته إلى مكان آخر ، مخلفة وراءها دهشة زملائه ، وحنقهم الزائد ، وتعليقاتهم اللاذعة ، وعندما انفردت به فى «كازينو» هادئ ، حلو النسمات على شاطئ النيل قالت فى ود ورقة :

- «ألن تغير من طباعك يا أحمد؟؟» .

- «كيف؟؟» .

- «أنت مهندس محترم ، والمهندس يجب أن يتكلم ويفكر ويسير بطريقة أفضل . . طريقة تتناسب مع وضعه الأدبى

والاجتماعى . . إنك لا تكف عن التفكير فى الآلة الدنيا ليست مجرد آلات . . نحن بشر من لحم ودم . . الآلة هناك فوق الجبل . . وأنا هنا فى الكازينو . . أتفهمين؟؟» .

قال بسذاجته المعهودة :

- «أنت تعلمين أنى أحبك» . .

- «لكنك تعبد الآلة . . » .

قال أحمد فى شرودٍ :

- «إن شيئًا ما يربطنى بها . . شيئًا كالذى بين الإنسان ويده أو لسانه» .

- «تقصد أنها جزء منك . . لا يا عزيزى . . أنت عبد ذليل لها . . إنها تنسيك أحلى لحظات العمر وفى الوقت نفسه تشغلك عنى . . » .

هز رأسه فى حيرة ممتزجة بالضيق وقال :

- «إنها لا تشغلنى عنك . . وأنت لا تشغلينى عنها . . كلنا شىء واحد . . كالشراب الحلو ذى الرائحة الطيبة فيه سائل وسكر ورائحة . . لكنه شىء واحد . . » .

فصرخت :

- «افهمنى . . لسنا فى معمل تحليل . . » .

تلعثم قائلاً :

- «لا أدرى ماذا أقول ، لكن يا قدرية يجب ألا تكرهى الآلة . . إنها شىء بسيط عاجز لا يعرف الحقد . . صدقينى هى كذلك . . » .

وأدارت وجهها صوب النيل العظيم ، أمواجه هادئة تتلألأ وسط العتمة البعيدة ، وظلال القداسة تنبسط على وجهه ، كل شىء فيه يوحى بالروعة والجلال والشعر ، يمكن أن يكون «أحمد» مجنونًا كما يزعمون؟؟ إن كلماته كلمات فيلسوف ، ومشاعر شاعر قديس يتكلم ويتحرك ويحلم بالحب ، يفكر فى الناس كما يفكر فى الجماد . . العالم فى عينيه وحدة واحدة . . مزيج شهى كالشراب الحلو ذى الرائحة الطيبة . . لشد ما يحلو لها التذكر الآن وهى عكس أمامه ، والنيل إلى جوارها كثيرون . . أحبوها وطلبوا يدها . . كان أحمد المفتون عليهم فى علمه وعمله ونقاء قلبه . . لم يتعال عليهم بماله الكثير ، ولا بوالده الأستاذ الجامعى بكلية الآداب . . لقد اعتبرته قدرية بادئ الأمر مجرد صفقة رابحة ، وحاولت أن تنسى ما يرميه به الناس من السذاجة إن تغاضيها عن هذا العيب سيدر عليها الخير الوفير . . ستملك كل شىء وتمتلك الرجل الذى يحبها مجنون مَنْ يدرى؟ قد تستطيع شفاؤه من سذاجته فى يوم من الأيام . . سيكون جمالها وحبه الشديد لها هو الدواء السحرى الذى يخلصه من عاهته ، واستطردت قدرية فى تفكيرها . . لشد ما تغيرت نظرتها إلى

سذاجته . . إنها ليست من ذلك النوع القريب من البلاهة . . تستطيع أن تسميها طيبة مفرطة . . أو تطلق عليها «حبًا بلا حدود» لو كان هناك إنسان صيغ من حب وإخلاص لكان أحمد ومع ذلك فإن أفكارها لم تتوقف، وهبت واقفة مزمعة الرحيل، وقال أحمد وهو يرتجف :

- «إلى أين يا قدرية؟ !» .

- «لا تأخرت، ويجب أن أعود إلى البيت . . » .

وأخذ أحمد يفرك يديه فى قلق ويقول :

- «لم أقصد الإساءة إليك . . لا أقصد أن أغضب أحدًا . . إن ما قلته منذ دقائق كنت فيه على صواب . . وما دام هذا يؤذيك فسأحتفظ به لنفسي . . لن أتلفظ به مرة أخرى تعلمين يا قدرية أننى حريص عليك كحرصى على نفسي . . » .

قال مقاطعة :

- «أبدًا . . أبدًا . . إننى أفكر فى كل حرف قلته . . ويخيل إلىّ أنك على صواب . . » .

وانتابته موجه عارمة من الفرح وهتف :

- «صحيح كنت واثقًا أنك ستفهمين، وستفهمين أكثر عندما أجد الحل . . » .

قالت فى استغراب :

- «أى حل؟؟» .

- «أقصد الحل الضرورى لعيب الآلة . . الخرامة . .» .

ولم تجب عليه شيء . . أنفض رأسه فى أسف ، مخافة أن يكون حديث الآلة قد آذى شعورها مرة أخرى ، ثم تصافا ، وانصرفت .

●●●

توقفت «قدرية» عن إلقاء دروس اللغة الإنجليزية ، عندما سمعت صيحة ظاهرة خارج الفصل وأرهفت السمع ، وكذلك فعلت الطالبات ، فسمعت فراش المدرسة يقول :

- «يا أستاذ ممنوع . . إنها أوامر حضرة الناظرة . . تفضل فى حجرة الانتظار وسنسدعى الآنسة قدرية النظام هو النظام يا أفندى . .» .

ودق قلب «قدرية» من الحرج لا شك أنه «أحمد» كثيرًا ما يقدم على تصرفات غريبة تسبب لها الضيق والخجل ، لماذا أتى إليها الآن؟؟ ولماذا يعرض نفسه لاعتراض الفراش وانتقاداته اللاذعة؟! أليس من العيب أن يعطيه الفراش درسًا فى النظام والأدب .

وتوجهت قدرية صوب باب الفصل وكانت تدق الأرض بقدميها فى غيظ مكبوت ، وقد صممت على أن تصيح فى وجهه مؤنبة ،

وتطلب منه مغادرة المدرسة فوراً. وعندما رآها قادمة تهلل وجهه بشراً، وتوردت وجنتاه بما يشبه الخجل العذرى وقال متلعثماً:

- «كان يجب أن أحمل إليك ذلك النبأ السار بنفسى.. لم يكن فى استطاعتى تأجيله أكثر من ذلك..».

قالت قدرية بلهجة جافة غاضبة:

- «لماذا جئت؟!».

- «لأقول لك أن التجربة نجحت..».

- «أى تجربة..».

- «الآلة.. إن التعميم الجديد جاء رائعاً.. إنها تؤدى عملها الآن على أكمل وجه وإنتاجها تضاعف عشرات المرات، ولم تعد تصاب بأى خلل. لقد تمت التجربة أمام الجميع، حتى الخبراء الأجانب وقفوا مشدوهين.. لقد قرروا لى مكافأة مائتى جنيه.. إنها مبلغ بسيط.. لكن معناه قلته لمندوبى الصحف اليوم.. حدثتهم كثيراً عنك وعن الآلة.. الخرّامة الجديدة.. تصورى.. الجميع كانوا يقبلوننى مهنئين..».

أخذت سحابة الغضب تتلاشى من جبينها رويداً رويداً، أمام إشراقة وجهه النابعة، وزحفت ابتسامة حلوة على ثغرها.. ودق قلبها.. هذه المرة- سعادةً وحبًا وقالت:

- «ألف مبروك يا باشمهندس . . » .

ومدت إليه يدها مهنئة ، فتناولها بأناملها المرتجفة من أثر الانفعال ثم طبع عليها قبلة صادقة وقال :

- «وعطلة الزواج ستبدأ بعد أسبوع . . » .

قالت ودموع الفرح فى عينيها :

- وسيكون كتالوج الآلة الجديدة أول هدية أتلقاها منك يا يا أخلص إنسان عرفته فى حياتى . . » .

فوضع يده فى جيبه ، وأخرج ورقة كبيرة ليست نظيفة تمامًا ، وقال :

- «لم أنس ذلك . . لقد أحضرت لك رسمًا تخطيطيًا بسيطًا لها . . » .

«فتناولته منه ثم قلبت الورقة فى حنان ، وضمتها إلى صدرها» .



الطريق الشاق

مال عبد الباسط الهوارى على أذن المدير وهمس فى ثقة :

«فؤاد رجل حقير لا يستحق التقدير» ، وأضاف فى نبرات حانقة «هذا الكلب يعض اليد التي تقدم له الإحسان» ونظر المدير إلى وجه عبد الباسط ، ودقق النظر فى شعره الأشيب ، وعينيه الحاقدتين الجاحظتين وتمتم : «حتى أنت يا عبد الباسط ! !» وهز المدير رأسه فى حيرة ، وأخذ يوقع الأوراق التى أمامه ، ويسجل الملاحظات التى تعن له ، لكن دوامة عاصفة تدور فى رأسه دورانًا عنيفًا ، فالأمر ليس هينًا ، إن فؤاد هو المهندس الأول فى الشركة ، وعلى أكتافه نهضت عدة مشروعات ناجحة للمبانى فى هذه الصحراء ، واسم فؤاد أصبح فى طول الساحل وعرضه قرينًا للإجادة والإنجاز السريع والدقة والأمانة ، وقد كثر الحديث عن فؤاد فى الأيام الأخيرة ، بعضهم يتهمه بالسرقة وأخذ سمسرة من خلف ظهر المدير ، والبعض الآخر يتحدث عن علاقاته المريبة ببعض النساء ، وهناك فريق ثالث يزعم أنه قد عقد صفقات سرية مع أصحاب شركات

المقاولات الأخرى، مما أدى إلى فقدان شركته لعدد من المناقصات لم يكن يعرف سرها إلا هو، لقد كثر اللغط والحديث حول تصرفات فؤاد، لم يصدق المدير فى البداية، رفضها رفضًا حاسمًا فهو يعرفه جيدًا، ويثق به، لكن سكرتيره الخاص كان يأتى إليه كل يوم بالجديد من الأخبار عن فؤاد. . والحق يقال إن المدير كان شابًا لا يتجاوز الخامسة والثلاثين، ولا يكترث للتصرفات الشخصية للأفراد ولا يهمه إن كانوا من المتصوفين أو من الداعرين، المقياس الذى يقيس به الموظفين فى الشركة هو العمل العمل وحده، فلم يكن يرى بأسًا أن يذهب موظفه إلى المسجد أو إلى الحانة، ما دام لا يقصر فى أوقات العمل، ويحقق الربح للشركة، إن المدير أصبح يعانى من القلق والتوتر؛ وذلك لأنه لم يستطع طوال الفترة السابقة أن يصل إلى قرار حاسم بخصوص المهندس فؤاد: وأخيرًا قرر أن يجابهه بالحقيقة، فالأمر لا يحتمل التأجيل أو التسويف، ولم يكن يزعج المدير سوى التهمة الخطرة التى تجعل من فؤاد عميلاً أو سمسارًا لدى الشركات الأخرى التى تنافسهم، وذات مساء رتب المدير للاجتماع الحاسم، لم يكن يبدو على فؤاد شىء من الاضطراب أو الخوف، كان اللقاء فى بيت المدير.

– «يا باشمهندس. . العمل عمل. . أنا الذى أعطيتك ثقتى كاملة أستطيع أن أنزعها عنك فى لحظة. . لا رباط بيننا سوى العمل. . أتفهم!! أنا أؤمن بالعواطف. . تلك هى فلسفتى التى حققت لى

النجاح فى كل مشروعاتى سواء فى ليبيا أو فى السعودية . . أو فى البحرين أو فى الكويت . . أو هنا فى الخليج . . » .

نظر إليه فؤاد بعينين صافيتين لا تطرفان أو ترتجفان وقال :

- قد أخالفك الرأى ، فالعاطفة الطيبة بين العاملين لها قيمتها الكبرى . . أعنى لها قيمة مادية . . » .

ربما تضايق المدير الشاب لمجرد سماعه بوجهة نظر تختلف عن وجهة نظره ، لكنه أدرك على التو أن فؤاد على صواب ، وقد جرب المدير ذلك بنفسه مرارًا ، إن العاطفة الإنسانية من تعاون وصدق وحب قد تدفع العاملين إلى مزيد من الإخلاص والإنتاج الجيد . . ولم يرد المدير أن يدخل فى نقاش جانبى ، وإنما ولج باب القضية مباشرة دون إبطاء :

- «وحسنًا . . إن المناقصة التى خسرناها بالأمس ليست مجرد صدفة . . » .

- «ماذا تعنى ! ! » .

- «أعنى أن هناك من وشى بأسرارنا . . بالأسعار التى قدمناها . . » .

هز فؤاد كتفيه دون اكتراث وقال :

- «يحتمل ذلك . . لكنى أعتقد أن رفعك للأسعار هو الذى أدى إلى ما حدث . . » .

احتقن وجه المدير ، هذه هى المرة الثانية فى خلال لحظات التى

يصفه فيها فؤاد بالخطأ ، يبدوا أن فؤاد قد استولى عليه الغرور ، الغرور ليس هو الثقة البالغة بالنفس . . إنه نقيصة وقحة وقلة أدب .

- «قلت لى إنه من المحتمل أن يشى بأسرارنا أحد ، فمن تظن ! !» .

- «لا أدرى . .» .

- «أنت متهم . .» .

قالها المدير وهو يرمق وجه فؤاد الذى شحب وتغير ، لكن فؤاد تمالك أعصابه وقال :

- «يستطيع أى شخص أن يتهمنى . . لكنه لا يستطيع أن يقدم الدليل . .» .

وأخذ فؤاد يجفف عرقه ، بينما همس المدير :

- «هل تضايقت ! !» .

- «لم أتضايق بعد . .» .

- «كثير من الموظفين يزعمون ذلك» .

- «الزعم ليس حجة . .» .

- «ولماذا يفعلون ذلك ! !» .

- «هذا هو السؤال الذى يبحث عن إجابة . .» .

آه . . وتذكر المدير كلمة سمجة قد قرأها فى خطاب ورد إليه من مجهول يقول فيه إن فؤاد على صلة شائنة بزوجته . . بزوجة

المدير . . وتقاطر العرق الغزير على وجه المدير . . مجرد التنكير فى ذلك يثير ثائرته، ويرفع ضغطه، ويجعل الأرض تدور به . . وقال المدير فى حنق:

- «ويرمونك بتهم أخلاقية . . » .

- «غير السرقة والسمسرة!!» .

- «نعم . . مسائل نسائية . . أتريد أيضًا الدليل!!» .

ليست هذه أول مرة يتعرض فيها فؤاد للأزمات، لقد عانى من هذه الاتهامات طوال حياته العملية، كان دائمًا يحرص على تأدية واجبه، ويسير فى الطريق المستقيم، فهو يعلم- كمهندس - أن الطريق المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين . . هذا في الهندسة . . لكنه كان يرى فى حياته إن الطريق المستقيم يكلفه الكثير من الجهد والوقت والأعصاب . . لكنه أصر عليه دائمًا واثقًا . . أن النظرية العلمية الثابتة حقيقة . . والناس يكرهون الحقيقة أحيانًا . . الشرفاء يعانون معاناة قاسية فى هذا الزمان، وفؤاد صاحب مبدأ لم يجن أو يغدر فكيف يواجه هذه العاصفة وحده!!

إن المدير يعلم جيدًا أن المناقصات ليست سرًا، فأى موظف بالوزارة يمكنه أن يذيع تفاصيلها لمن يدفع، ثم هناك سكرتير المدير الخاص، وهناك عبد الباسط الهوارى، الكاتب العجوز، الذي حج بيت الله الحرام خمس مرات، والذى يدمن الأفيون، ولا تفارق

المسبحة أصابعه، وهناك. . أوه الشركة كلها عيون. . جنسيات مختلفة. . فيها من يبيع شرفه، وفيها من يبيع الشركة أو المدير إذا وجد من يدفع الثمن. . وفؤاد يعيش وسط هذا الخليط متميزًا صامدًا صابرًا لا يفكر إلا فى عمله، ولا يكترث كثيرًا لما يثور حوله من أقاويل وأكاذيب وإشاعات. . وعلى الرغم من هذه النقائص التى تشين المجتمع الذى يعيش فيه، والدسائس التى تغرقهم فى مائها الآسن، إلا أنه كان يبتسم ويتسامح ويغفر للخطاة. . وكان بعض أصدقائه يسخرون من فلسفته، ويصرخون فيه «إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب»، فكان يضحك ويقول: «إن تكن رجلاً قويًا مؤمنًا، فرت منك الذئاب والأسود والفيلة. . ». . أترى كان على حق!!

- «يا باشمهندس فؤاد. . لقد قررت الاستغناء عن خدماتك. .

سقطت الكلمات عليه كالصاعقة، شعر بقلبه ينزف دموعًا ليست هذه هى المرة الأولى التي تنهى فيها خدماته. . إنها المرة الثالثة، وكانت كل مرة تتضح فيها براءته بعد فوات الأوان. . هذا ما كان يحدث دائمًا. . قال له الأصدقاء يجب أن تغير طريقتك فى الحياة يجب أن تعيش فى قلب العصر. . كن كالناس يا فؤاد. . كل واشرب وعانق النساء. . ونافق واكذب. . حاول الشيطان أن يجرفه لمجرد التأكد. . كان يريد أن يجرب الطريقة الثانية. . لكنه فى النهاية كان يحجم ويتردد. . ».

- «ألا تمنحنى فرصة أخرى يا سيدى المدير. . ».

قهقه المدير قائلاً فى شماتة وسخرية :

- «ها . . ها . . إنك تعترف» .

- «أعترف بماذا ! !» .

- «بجرائمك . .» .

هز فؤاد رأسه قائلاً :

- «بجرائمى ! ! نعم . . نعم . . هكذا كانوا يقولون لى دائمًا . . فى كل مكان ذهبت إليه كانوا يرمونني بالغفلة . . ويعددون لى جرائم لم أرتكبها . . لقد أوشكت أن أؤمن بأن جريمتى الأساسية هى الفضيلة . .» .

أمسك المدير بكتفه وهزه فى حقد، وهو يتذكر ما لاكته الألسنة حول زوجته وعلاقتها بفؤاد وقال :

- «لا تتكلم عن الفضيلة أيها الكلب . .» .

- «والكلب يا سيدى المدير يعرف للوفاء معنى . .» .

جفف فؤاد عرقه، وأعاد أحكام رباط عنقه، ثم ذهب واقفًا وقال والدموع تغرق عينيه :

- «قبل أن أرحل - أريد أن أقسم لك أن زوجتك أشرف منهم جميعًا . . وأشرف منك أيضًا . .» .

لم يستطع المدير أن ينبس ببنت شفة، حملق فى فؤاد ذاهلاً، وخرج فؤاد إلى الهواء الطلق وركب عربته «الفولكس واجن» التى

يركبها منذ أربع سنوات، لم يكن هذه المرة يفكر فى أمه وأخواته البنات الأربعة، وأخوته حسن وحسين وزكى، هؤلاء الذين يتعلمون فى الجامعة والمدارس، كان يفكر فى أن يبدأ من جديد، وأن يتحرر من المديرين إلى الأبد لقد ترك الشركة نهائيًا. . شعر أنه قد ترك مجتمعًا آسنًا قذرًا تفوح الرائحة المنتة فى جنباته. .

إن أقسى ما يمزق كيانه وروحه هو أن يدان الناس بلا دليل. . بلا جريمة. .

وافتتح فؤاد مكتبًا خاصًا له، وأخذ يشعر بمذاق الحرية والنجاح وخيل إليه أنه قد افتتح مدرسة من نوع جديد. . وحين مال سكرتيره على أذنه هامسًا، تغير وجهه، وقال:

- «تكلم فى النور إن كان ما تقول عنهم حقًا، فلتقدم الدليل. .».

قال السكرتير مرتجفًا: «لا أدرى. . هذا ما سمعته. . إنى آسف يا سيدى ولن أعود لمثلها. . كأنى لم أقل شيئًا، وكأنك لم تسمع. . هه. .».

وابتسم فؤاد. . إنه ينتقل من نجاح إلى نجاح. . والشركة التى كان يعمل فيها بالأمس القريب قد أوشكت على الإفلاس. . وعبد الباسط الهوارى قدم إليه متوسلاً يريد عملاً يرتزق منه. . وغير عبد الباسط أتى رفاق آخرون. . من بينهم السكرتير الخاص للمدير السابق.

البلاد البعيدة

(١)

دبت الحياة فى حارتنا، وهرول الأطفال الحفاة، ومدت النسوة رؤوسهن من خلال النوافذ والأبواب متوشحات بالملابس السوداء، يتطلعن إلى تلك القافلة الغريبة. . إنهم أربعون رجلاً قدموا من بعيد، حاملين الفؤوس والمقاطف، يمشون فى وهن وقد لفوا على أدمغتهم شيلان بيضاء مغبرة، والناظر إليهم لا يكاد يميز بعضهم عن بعض، وجوه سمراء. . لحى كثيفة مهملة. . وعيون ضيقة حادة. . ملامح جامدة. . سترات سوداء.

ولم يعد يسمع غير كلمة واحدة «الصعايدة». . كان ذلك منذ ثلاثين عامًا عندما تقرر حفر -أو تعميق- أو توسيع- بحر شبين وهو فرع صغير من منبع من فرع دمياط الشهير، ليروى حيزًا كبيرًا من أرض «الغربية» الزراعية. . وكان واضحًا أن العمال يتنقلون صوب الغرب كلما أنهوا مرحلة من مراحل العمل، حتى جاء بحر شبين، وكان من نصيب هذه القافلة الغريبة.

واتخذ الرجال والوافدون دار «الحاجة خضرة» مقرًا لهم . . والحاجة امرأة عجوز، مقطوعة من شجرة كما يقولون، لا زوج ولا أولاد ولا إخوة . . وعندما فرضوا الأجر لقاء إقامتهم أقسمت إيمانًا مغلظة ألا تتقاضى مليمًا واحدًا . إذ رأت أن من العار والفضيحة أن تؤجر بيتها لهؤلاء الغرباء المساكين أو لغيرهم وكان معلومًا لدى الجميع أن هؤلاء الرجال من فقراء الصعيد الذين يعيشون بلا أرض ولا عمل .

ورمى الرجال بأمتعتهم فى ساحة الدار الكبيرة، ولم يكن متاعهم سوى الفؤوس والمقاطف وبعض الأرغفة الجافة، وتنفسوا الصعداء وتنحنح أحدهم قائلاً: ماء . . نريد ماء . . وصاح فلاح أجهر من أهل الحارة: ماذا جرى؟ أحضروا لهم الطعام يا ناس . . أعوذ بالله . . هم فى بلد يهود .

وتسابق أهل الخير، وأخرج كل بيت ما يستطيعه من الطعام، فأكل الرجال وشربوا ثم تراصوا فى المساء على المصاطب أمام دار الحاجة، وحولهم عديد من الأطفال والرجال وبعض النسوة، يجاذبونهم أطراف الحديث، فأخذ الغرباء يتكلمون عن ديارهم البعيدة، وعن الأهل والأحباب هناك، وعن الجبال والكهوف وحياة القلق والضياع ويحكون لهم عن فروسيات وملاحم عذبة النغم، تشبه إلى حد كبير حكايات أدهم الشرقاوى وأبو زيد الهلالى . . وأطبقت لحظة صمت قصيرة . ثم هتف أحدهم

«أسمعنا يا حمدان يا ولد عبد الله . . كان حمدان يجلس وسطهم بعوده السمهرى ووجهه المستطيل ذى التنبؤات وكان أملحهم سمتًا، وأشدهم جاذبية، وأقواهم جسدًا ولعله أصغرهم سنًا، تنحنح حمدان وتحرك من مكانه ثم رفع وجهه الأسمر إلى السماء وضوء لمبة الجاز يتماوج على بشرته الداكنة، ثم بدأ الغناء بمقطوعة يترددونها من آن لآخر . . آه.. **لكن بلاده بعيدة**.

واستطرد حمدان فى غنائه، كانت نبراته حزينة عميقة مؤثرة، وكانت كلماته أخّاذة . . تبث القشعريرة فى الجسد، والألم فى القلوب . . تكاد تدمع لها العيون . . لقد بدت كلماته غريبة بعض الشيء، عويصة الفهم بالنسبة لأهل بحرى لكن الجميع سواء من فهم منهم أو لم يفهم طربوا لها، وخفقت قلوبهم لصدقها ورموزها الحلوة . . نغمات تسكر الروح قبل أن تفهم العقل معانيها ومدلولاتها . . فبرغم اختلاف اللهجة، كانت هناك مشاعر وانفعالات مشتركة بين «الصعايدة» وبين الجالسين من أهل القرية، رابطة قوية تجمع بينهم رابطة من نوع عجيب . . وفى نهاية الموّال لم يكن الصعايدة يرددون المقطع المكرر وحدهم بل كان أهل القرية أيضًا يترنمون معهم وراء حمدان : آه.. **لكن بلاده بعيدة** . .

وأحسست -وأنا طفل صغير آنذاك- أن لحن حمدان يحملنى على أجنحة من الخيال إلى آفاق عذراء بعيدة إلى أرض الأحلام

الخضراء الزاهية، إلى الفردوس المفقود الذى تحترق روحى إليه لهفة وعشقًا إلى عالم غامض بديع لا أستطيع أن أرسم تفاصيله، ولا أعبر عن كنهه، إنه عالم مجهول ومعروف فى الوقت نفسه وخيل إلىّ أن حمدان لا يغنى ولكنه يترنم بالدموع ونبراته تسكب قطرات خارقة من الألم الممتع، ورأيت سيول العرق الرفيعة تجرى على جبهة حمدان وعنقه الممتلئ الطويل كعنق فارس من فرسان الأساطير. . وسمعت الحاجة خضرة صاحبة الدار تقول وقد توقف حمدان عن الغناء: «كلامك حلو. . يا ضنايا. . يا ولدى القرية عذاب». . وكانت كلمات الحاجة مختلطة بالبكاء ليلتها لم أستطع النوم إلا فى وقت متأخر، وكانت صورة حمدان لا تفارق ذهنى ونبرته الشجية لم تزل تطن فى رأسى الصغير، وأصوات باكية مؤثرة يتردد صداها فى الحجرة السوداء من حولى تقول: «**آه.. لكن بلاده بعيدة..**».

وأصبح حمدان على كل لسان فى حارتنا، وصار سامر الليل والغناء عادة لا تنقطع كل مساء بعد عمل شاق مرهق تحت وهج الشمس الحارقة أثناء النهار وفى كل مرة يقول حمدان كلامًا جديدًا يلقيه ارتجالاً، يلون فى الكلمات والمعانى والحكايات الملحمية، ويسيطر على عقولنا ومشاعرنا، ولكنه دائمًا يتكلم عن غدر الزمان، وفرقة الخلان، ودنيا الأحزان، وعن قليل الأصل الذى يتحكم فى الرقاب والشهم الكريم الذى أذلته الأيام. . أجل كانت مواويله وحكاياته طويلة ومتنوعة. . وكلها تبدو وكأنها

قصة واحدة . . قصة الحرمان والأسى الطويل . . كانت كلماته باكية حتى عند لقاء الأحبة ، وعند تحقيق الآمال . . لكنه لا يجيد إلا التعبير عن الأحزان والآلام .

واستولى حمدان على كل مشاعرى ، لم أكن أنظر إليه كغريب ضائع أجير يبذل عرقه وشبابه من أجل ملاليم ، وإنما بدا فى نظرى مثالاً للبطولة الخارقة ، ونموذجًا للرجل العظيم الذى أحلم به ، وأتمنى أن أكون مثله . . كنت أتمنى أن ينصرم النهار بسرعة ، حتى أخرج من الكتاب وأخلص من قسوة سيدنا ثم آوى إلى مجلس حمدان . . ولشد ما طربت عندما توثقت عرى الصداقة بين أبى وبين حمدان وأبى لا يختلف كثيراً عن حمدان من حيث الوضع الاجتماعى ، لأن أبى لا يملك أرضًا بل يستأجر فدّانين من أحد أثرياء القرية يزرعها وينفق علينا منها ، وأخذت أحلم . . لسوف يكون حمدان لى وحدى ، وسأطلب منه الغناء فيغنى . . يغنى لنا داخل دارنا . . ولسوف أرفع رأسى فى تيه وعجب وأقول : حمدان صديق أبى ، وأصبح من المألوف بعد ذلك أن يحضر حمدان ليتناول فنجانًا من القهوة أو الشاى مع أبى ، وقد يتصادف وجوده أثناء العشاء فيصر أبى إصراراً شديداً على أن يشاركنا الطعام وكانت عمتى خديجة تقاسمنى إعجابى بحمدان وكانت تحرص مثلى على سماع مواويله ، وترددها بلهجة حمدان الصعيدية .

وسمعت عمتى تقول ذات يوم «ليت حمدان يستوطن قريتنا» فقالت لها أمى: «الوطن غال يا خديجة إن له أهلاً ينتظرونه، ولعل له زوجته»، وهتفت عمتى فى استنكار زوجه؟؟.

- «و لما لا؟؟».

- «أيتركها طوال هذه الشهور».

-«إنهم يتركون زوجاتهم وأولادهم سنين طويلة.. لقمة العيش صعبة يا خديجة.. إنهم مساكين».

- «قلبى يحدثنى أن حمدان غير متزوج..».

- «هذه مسألة لا أهمية لها.. ثم إن حمدان غداً يرحل.. فلماذا تشغلين نفسك به».

بدا الشحوب على وجه عمتى، وكانت تغسل إناء نحاسى، فلاحظت شدة ارتبكاها وضيقها ثم عادت عمتى تقول: آه.. تذكرت حمدان لم يتزوج.. ألا تعرفين السبب؟؟

فقالت أمى بسخرية: «لأنه لا يملك ما يتزوج به»، ردت عمتى فى شىء من التبرم «لقد علمت أنهم قتلوا أباه».

- «مَنْ؟؟».

- «ناظر العزبة ورجاله».

- «أية عزبة؟؟».

- «لا أدرى لم يستطع أن يأخذ بثأره . . عدوه يملك كل شىء وهو لا يملك شىء . . ليت الأمر وقف عند هذا الحد حاولوا قتل حمدان نفسه . . فأخذ أمه ورحل إلى بلد آخر . . إن حمدان يحكى للرجال هنا حكايات غريبة . . ».

كنت أستمع إلى عمتى بكل كيانى بينما حاولت أمى أن تغير مجرى الحديث . . لست أدرى لماذا؟ إن كل يوم يمر يضفى على شخصية حمدان غموضًا رائعًا يسلب لبى . . كل شىء فى حمدان قوى مثير ملامحه . . أغانيه . . سيرته . . بلاده البعيدة . .

وفجأة اكفهر أفق دارنا الصغيرة ، وبدا الوجوم على وجه أبى ، وعمتى نكّست رأسها ، واختفت عيناها ومن آن لآخر تمسح دمعة خفية تفلت من بين أهدابها وأمى غاضبة .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد . . لقد ذهبت كالمعتاد إلى بيت الحاجة خضرة فوجدت الغرباء يجلسون القرفصاء صامتين . . ووجدت نظراتى باحثة عن حمدان فلم تعثر له على أثر . . واقتربت من أحدهم قائلاً : أين حمدان فلم يجبنى أحد . وعدت أسأل : ألن يغنى الليلة؟؟ .

فجائنى صوت الحاجة خضرة : «كفى يا ولد . . اذهب لتنام . . العفاريت نامت» .

وأخذت أنثر استفساراتى هنا وهناك متلهفًا على جواب شاف دون فائدة ، وألقيت بجسدى فى النهاية على الحصير الكالحة مزمعًا

للنوم . . لكنى لم أستطع . . أغمض عينى وأخذت أقرأ الفاتحة بصوت لا يكاد يسمع ، وأوشكت أن أغفو لكنى سمعت أبى يهمس : منك لله يا خديجة . . قالت أمى : «لها عين تندب فيها رصاصة ولا ترمش . . » .

- «سيرتنا على كل لسان . . ليس فى حمدان ما يعيبه . . لكن الأمر شائك ومحير» .

- لأنك لم تحسن أدبها . . أباحت لنفسها التحدث عن الزواج من رجل لا بيت له .

- «لقد علم العمدة بالأمر . . الناس جميعًا يعلمون . . يا للفضيحة . . يقولون خديجة عشقت حمدان قالت أمى فى ضيق : أتعشق هذا الـ . . . » .

- «لقد أتخذ العمدة قرارًا . . لسوف يطردهم من البلد . . ومع ذلك فقد ظلم الناس حمدان وخديجة لم يخطئ أحدهما . . كانت بينهما رغبة مشتركة . . فى الزواج . . لا أكثر . » .

وفى اليوم التالى كانت الحاجة خضرة تجلس أمام بيتها وحيدة حزينة . . أحسست أن كارثة قد حلت وعدت إلى البيت وألقيت برأسى فى حجر عمتى ، وأخذت أبكى . . ثم رفعت أهدابى المبللة وأتساءل . . «علمت أن حمدان رحل . . » وكانت الحاجة خضرة تجلس فى المساء وحيدة أمام بيتها ، وتدندن بكلمات حمدان «آه . . لكن بلاده بعيدة» .

المحتويات

الموضوع	الصفحة

●●●